

غداة السَّمَان

جبل المرافي في القديمة

منشورات غداة السَّمَان



غادة السمان

رحيل المرافي القديمة

قصص



جميع الحقوق محفوظة للمؤلفة

منشورات غادة السمان

بيروت - ص.ب ١١١٨١٣

تلفون ٣٠٩٤٧٠ - ٣١٤٦٥٩

الطبعة الأولى : شباط (فبراير) ١٩٧٣

الطبعة الثانية : نيسان (أبريل) ١٩٧٥

الطبعة الثالثة : حزيران (يونيو) ١٩٧٨

الطبعة الرابعة : كانون الأول (ديسمبر) ١٩٧٩

الطبعة الخامسة : أيلول (سبتمبر) ١٩٨٣

الطبعة السادسة : أيار (مايو) ١٩٨٨

الطبعة السابعة : كانون الأول (ديسمبر) ١٩٩٢

رجل آخر .

يوم آخر .

فندق آخر .

مدينة أخرى .

وأنا في رحلة تخدير جديدة .

وفي كل مرة ، أُللم أشلائي ، واستقل الطائرة بفرح وترقب مدمن
يُعدّ ابنة المورفين ليغرسها في عروقه .

أعجب ابنة « مورفيني » بالمدن النائية ، بوجوه الغرباء الراكضة في
شوارع مطرة لم ارها من قبل .

اصوات إقلاع الطائرات الى بلاد بعيدة مشمسة في استراحات المطارات
عند الفجر المغبر ، وامامي صحف الصباح بلغة لا أفهمها ..

الرقص المجنون في الحانات المضمخة بروائح الحمرة واللحان .

الانسلال الى غرف الفنادق الفخمة والوصيفة في ليالي الوحشة مع رجال

لا وقت لديّ لحفظ اسمائهم وتدوينها في مفكرتي (لذا أكتفي

بوضع خط لكل رجل في صفحة مفكرتي كتلك الخطوط التي يطررها

السجناء بأظافرهم على جدران زناياتهم ليعوا ، ولو وعياً مبهماً ، توالي

الايام .. وقلما وضعت الى جانب الخط نجمة او نجمتين لاتذكر رجلاً

نادراً . بلا حوار ليس هنالك رجل نادر او غير نادر . هنالك فقط حيوان

نادر ، كثيف الفرو غنيّه ، رشيق الانقضااض كالشهد ، سريع الحركة

كمنقار طير جائع) .

بذلك كله أعجبء ابرة هربي واغرسها في عروقي - كلما جُنّ في احشائي
عذاب الصحو - لاهرب ولانسى .. أنسى .. أنسى .. أ .. ن .. س ..
ى ...

رجل آخر .

يوم آخر .

فندق آخر ، وانا مرمية في بهوه ، امام جدار زجاجي كبير يفصلني
عن الشارع حيث تمطر ، وتطفو المراثيات خلفه فوق برك الماء والضباب
وظلال الصباح الرمادي ، زائفة وغير حقيقية ... مثل حلم رمادي داعم
من تلك الاحلام الحزينة التي تنساها فور يقظتك ، وتستيقظ منها دائماً ،
ودموع مجهولة الينايع تغطي وجهك ، واحساس مرير برحيل الاشياء
الجميلة وانزلاقها السريع فوق برك الوعي ، يتأكلك ...

« جرسون » آخر . يخاطبني بلغة المانية الثيرة . لا افهمها . يسألني
بالانكليزية : ماذا اريد طعاماً للفطور ، فانتظره بأنني لم افهم . يجرب
الفرنسية وأصر على التجاهل . الاسبانية . الايطالية . اظل مصرة على عدم
الفهم . لو جرب لغات العالم كلها ، التي اعرفها والتي اجهلها ، لظلت ارمقه
كطفل لم يتعلم الكلام بعد . انني أصر على التفاهم معه ومع سواه بلغة
الاشارة . لغة العصور الحجرية . لغة ما قبل اختراع اللغة والكذب والزيف ..
تروق لي اللعبة ، وأمارسها منذ خمسة ايام ، منذ وصلت الى فيينا . بل انني
اخترت المجيء الى فيينا بالذات لانني لا اعرف لغة اهلها ...

واخترت المجيء اليها مع (جورجي) لانه اخرس ! انه عشتقي المفضل
منذ اعوام لانه اخرس .. حتى حينما يخاطبني بعض اهلها بلغة اعرفها ،
أنتظره بالتجاهل تماماً وأصر على العودة الى عصور ما قبل اللغة .

(يوم علمني والذي السفير ست لغات ، لم يكن يدري أن ذلك سوف
يزيد في مرارتي حين اعي فجأة انني اتكلم لغات ستة شعوب ، وأعجز
عن التفاهم الكامل مع انسان واحد فقط ... ويوم اورثني امواله لم يكن

يدري انني سأنفقها راكمة بين اقطار الارض مع عشيق اخرس بحثاً عن اقوام نسي ان يعلمني لغتهم ولا اعرف كلامهم ولن يحاولوا بالتالي مدّ جسر الانغام بيننا .. جسر اللغة الذي لم يقدم أحد على لغمه العلني كما يفعل حكام بلادي ، أكثرهم يمارس ذلك بنية طيبة وقليلهم بتواطؤ خائن وجميعهم مؤذٍ ، وانا .. يا لرعي ! كنت طيلة عملي في اذاعة ذلك البلد العربي من بعض تلك الاداة ... ولاني كنت من بعض حنجرة تلك الاداة قتلت أخي ، وقتلت ايضاً الآلاف الذين اجهل اسماءهم ، ولم أع ذلك الا يوم اكتشفت كيف قتلت أخي ... يا لفظاعة ذلك كله ! تحالف عليّ طموحي ، وكبتي الانثوي التاريخي والخبث السياسي لرؤسائي ، ووجدتني اداة جريئة .. صوتي - أجمل الاصوات الاذاعية كما كانوا يصفونه - كان أداة الجريئة .. كان فحيح الأفعى ... كنت اعرف ان بعض الذبذبات الصوتية الشديدة التوتر والتي لا تسمعها الاذن المجردة ، يمكن ان تسبب مصرع الكائنات الحية ... ولكنني لم اكن ادري أن أشد الذبذبات الصوتية فتكاً ، هي تلك التي يكتبها موظفو اذاعة مأجورون ، وأقرأها انا وأمثالي من الحناجر الغيبة ، ثم تلتقطها الاذن وترجمها الى كلمات ثم تمتصها دون ان تدري سمها الكامن في كذبها المدرّس وكذبها الجاهل .. يا لرعي ! ... لم أكن أدري انه ساعة انساب صوتي تلك الليلة الحزينة من حزينان على احدى تلال القدس منذ خمس سنوات ، وكان أخي وفريقه القُدائي يستمعون اليّ في مخبئهم ، كنت اقودهم الى فخ ... فخ ... فخ ... واني بعد ان اتممت قراءة النص الذي قدمه اليّ حازم ، مديري في الاذاعة ، وتركت معزوفة الدانوب الازرق تصدح شارة برنامجي التي كنت اتعامل بها -لاني اول مرة اكتشفت فيها الرجل عبر جسد حازم كانت الحانها تصدح - .. انها ليلتها كانت المعزوفة الجنازية لآخي ورفاقه ! .. لم أكن ادري . كنت مشغولة عن ان ادري بحازم . بعيني حازم . بصمته الذي كنت اظنه صلاة واكتشفت في ما بعد أنه كاتم للصوت على فوهة مسلسل الغلر .

وكالعادة ، النهيت عن مناقشة كل ما كان فيه من مبالغات بل أكاذيب -
وكان حازم يفضل يومها اسم مبالغات لاجل المصلحة العامة - ، ونسيت
التساؤل عن جدوى اعلان انتصاراتنا الموهومة بينما نحن نتقهقر ، لانني
غرقت في عيني حازم .. ذلك الرجل الذي كان أبداً جرحي ولعني
وسوطي . حازم أحبته بكل ما في جسده من طاقة على تخديري ، ورفضته
بكل صحوي ، وبعداب امرأة تجري لها باختيارها عملية جراحية دون
تخدير ، أجدني اذكر ما كان ... من كان يصدق أن عمر الذاكرة أطول
من عمر الجرح ؟ ... اوه يا حازم كيف اهترأنا ، وصرت انت مؤسسة
للزيف ، وصرت أنا مؤسسة للهرب (... الهرب .. انا هنا لاهرب ..
لانسى ... انسى ... أ .. ن .. س .. ي ..

ولكن لماذا افكر بحازم وانا مع (جورجي) ؟ .. لماذا كتب عليّ ان
يكون جسدي مع رجل بينما يتابع فكري شجاره مع رجل آخر وعذاباته
مع آخرين ؟ ...

ما زلت جالسة في صالة الفندق خلف النافذة ، والمطر كفّ عن المطول .
جورجي ، تراه ما زال نائماً ؟ ... ترى كم الساعة الآن ؟ ... جورجى
الراقص الاول في بيروت وصاحب (أرقى) مرقص للطبقة الراقية فيها
حيث ذهب مرة منذ عامين مع بعض (صديقاتي) ... صديقتي بحكم
واقعي الاجتماعي الموروث ، لا انتمائي الحقيقي الواعي والذاتي .
(تعب الراقصون وتعبت . خرج هو الى الحلبة وسيماً طويلاً القامة كالمنارة
يرقص رشيقاً كفه الغاب ... يعلم السيدات خطوات رقصة جديدة
وفي عينيه نظرة نائية كأنه قادم للتو من كوكب آخر وسيعود اليه بعد
انتهاء الرقصة ... تكاثرت السيدات حوله كالذباب . تثاءبت وأدّرت
وجهي . حينئذ همست صديقة في اذني : انه اخرس ! ...

وهنا التهاب اهتمامي وعدت أتأمله من جديد وقد صارت مسامي
عبوناً شرهة ...

لا . لم تكن قامته المشدودة كالرمح وصدره العريض مثل تل النسيان ...
لا ... فقد كنت ركضت قبلها طيلة اعوام ثلاثة في حقل كبير
مفروش بصدور رجالي الكثير ، وكنت اففز من صدر الى آخر شبه ملسوعة .
كنت امرأة تركض مسعورة في الحقول وعلى رأسها حطّ سرب من
النحل الذي لا يكفّ لحظة عن لسعها ... ونحل ذاكرتي كالنباتات الخرافية ،
كلما قتلت بعضه تضاعف وتكاثر ...

وجورجي اخرس ... معه استطع ان احيا عالماً بلا كلمات وبلا زيف ..
انه عاجز عن النطق ، اي عاجز عن الكذب والزيّف ... اي ان احداً
لا يستطيع ان يقسره على ان يقول لغماً ابجدياً واحداً ..
وهو مع ذلك قادر على النطق المحدود بالابجدية جسده حينما يرقص ،
وبأعضائه يستطيع ان يقول لي احبك كما لم يقلها رجل ، وبفصاحة لا
تعرف الأعيب البلاغة .

وخلعت عن عيني نظارتي ، وكانت صديقتي يعرفن ان ذلك معناه
انني ذاهبة الى الصيد وانني اعود دوماً بطريقتي المبتغاة . وبعد نصف
ساعة من الرقص المشترك ، نصبت خلاها شباكي كأية عنكبوت خرائب
محنكة ، احسست بيده القوية تشد يدي بطريقة اعرف جيداً كيف أفسر
شيفرتها ، وصارت نظرائه تلفتي بكهارب سئمت لكثرة ما رماني الرجال
بها) ...

ولكن جورجي لم يكن رجلاً كالرجال ... كان يمتاز عليهم بفحولة
الرجولة الاساسية المنسية : الصدق ... وكان حتماً يمتلكها ما دام أحمس ... !
اي انه كان عاجزاً عن ممارسة الكذب ... وقيل الكثير عن علاقتنا وعني ،
ولكن احداً لم يدر ما الذي شدّني اليه حقاً . بل انهم كانوا يدهشون كيف
احب رجلاً اخرس . وكنت اقول لهم ان اشارات يديه اكثر تلوناً في التعبير
عن الاشياء من (المعلقات السبع) .. وان ضربات قدميه على الارض مظهرة
احتجاج ... ولكنني لم أقل لهم انني احسد حنجرته التي تصدر احياناً

همهمات بدائية لها حرية الرياح في الغابات البكر .. حنجرته منيعة بشللها .
منيعة بسكينتها النثرية . منيعة كقلعة مهدمة لا يستطيع احد استعمالها من
جديد لعكس الغابات التي بنيت لاجلها اصلاً ... لا يستطيع أحد اغتصابها
عنة او حتى سراً عنها كما حدث لحنجرتي المستباحة ...

حنجرتي المستباحة ... اداة الخريمة ... يا انا (حزيران ١٩٦٧) وكنت
اعمل في احدى الاذاعات العربية ... وكانوا يقولون إن صوتي افضل
الاصوات الاذاعية العربية ... وكل ما اعرفه هو ان الميكروفون لم يكن
قط موجوداً بالنسبة الي ، واني حين كان يضيء النور الاحمر في الاستوديو
أيداناً ببدء بث صوتي كنت احس ان ستارة ترتفع بيني وبين الملايين ...
والجدار الزجاجي بين الاستوديو الذي اذيع منه وغرفة المخرجين ومهندسي
الصوت كنت أحسه مثل جدار غواصة زجاجية وأرى على طرفها المقابل ملايين
الوجوه الصغيرة يعيونها الفضولية الطفولية الفاغرة وكلها قد ألصقت آذانها التي
تشبه آذان الأراب بالزجاج .. وكنت أحبهم وأقرأ لهم الأشعار الحلوة ،
والأخبار الحلوة وغير الحلوة ، ولكنني كنت دوماً أشعر بسعادة ساعي البريد
المخلص الذي يركض ليلاً نهاراً بين الأكواخ الريفية ليحمل إلى الناس
الأخبار ، حاولها ومرّها ..

إلى أن كانت تلك الليلة المشؤومة في الثامن أم تراه التاسع من حزيران ؟
ولكن لماذا أسميه مشؤوماً لمجرد أنني يومها اكتشفت مستنقع الحقائق
المروعة التي نفوس في قدارتها ، وبصر قادتنا على إيهامنا بأننا أبطال في التزلج
فوق بحر التاريخ والوجود ، مقابل أن نحافظوا على كرسي الزعامات والاستغلال ..؟
ذلك الأسبوع ، أسبوع الحرب ١٩٦٧ هل أنساه ؟ يومها أصدر إليّ حازم
أوامره بإخراج كل الأغاني (الوطنية) من مكتبتنا الموسيقية ، وبكتابة القصائد
الحماسية لاذاعتها بين الاخبار والموسيقى ...

وفي الايام الاولى كنت اذيع انشودة « امجاد يا عرب امجاد » وكلي
سعادة ، واتخيل اخي ورجالنا على مشارف القدس يدخلون نصفها المحتل ...

وحتى صبيحة اليوم الخامس للمعركة لم يدر بخلدي ان البلاغات التي كنت اقرأها بكل صدق للناس كانت كاذبة ... واننا كنا نسميهم بالزيف وان حنجرتي - المخملية - كانت أداة الجريمة ... وحتى حينما شاع أمر الهزيمة بعد العاشر من حزيران ، قرأت كل ما كتبه حازم عن انها نكسة لا هزيمة ... وكل التبريرات والعنريات التي يظن من يسميها انها تدافع من عاصمة منتصرة لا مهزومة ...

واذكر انني ليلتها أحسست بكثير من الخجل وانا اذيع اغنية « امجاد يا عرب امجاد » ، ولأحظت بأن وجوه الملايين التي كانت تجيء زجاج نافذة الستوديو تنصت للاخبار بعينها الفضولية الطفولية الفائرة قد تجددت وهرمت الف سنة ، وان عيونها فقدت كل الطفولة ، صارت حمراء دامية كبرك الدم ، مليئة بالغضب والشرر والوعيد ... اما آذانها التي تشبه الارانب والتي كانت تلصقها بوداعة الى زجاج الستوديو فقد استحالت الى آذان نمرة غاضبة مرهفة التحدي كأنها تتحفز للانتقام ... وارتجف صوتي بالخجل والعار ... والخوف منهم ...

وغادرت الاذاعة وآلاف الاسئلة ترتجف على فمي ... كنت ما ازال اقدس السلطة والنظام واؤمن بأن « وطني دائماً على حق » ! وبأن حازم هو التجسيد الحي لتلك السلطة .

وانتظرت لقائي الليلي بحازم ... وسألته لماذا خدعنا الناس ؟ لماذا ادعنا بلاغات كاذبة ؟ لماذا نموه الآن الهزيمة ؟ لماذا ؟ لماذا ؟ ..

صرخ بي : اذن انت عميلة ؟ ! ..

قلت له بحرقه : لماذا التكبير في بلادي مرادف للعمالة . انا افكر ،

فأنا عميل ؟ ! .. لماذا ؟ ..

وعدت اكرر اسئلتى بحرقه ، ولم يرد وانما اكفى باغلاق فمي بشفتيه .

يا لتفاهة الجواب ! لكنني قبلت .

واقبلت عليه بكبت انني قضت الف عام تحت رمال الصحراء ، وبعد

الفي عام من الانتظار - ما تزال في دمها ، في كروموزوماتها الموروثة -
وجدت نفسها بين ذراعي رجل ... وكانت معزوفة «الدانوب الازرق» .
ومع «شراوس» رحلنا الى جزر «آكلي اللوتس» ... جزر النسيان
والخدر ... ومن الفراش المصطخب كموجة تطارد جزيرة هربت «القضية» ..
ولاحظت ليلتها ان اصطخاب امواجنا لم يبدأ حتى كاد يغمر علينا ...
لكنني في صبيحة اليوم التالي - صبيحة يوم الهزيمة - دهشت حين
ذهبت الى الاذاعة ولم أجدها مغلقة ! ... كنت احسها كدكان استنفدت
اغراضها وباعت بضاعتها ووزعت «مورفينها» ، وانتهى الامر ...
فوجئت بان الاذاعة لم تغلق دكانها وبخازم ينتظرنى ويده تعليق عليّ ان
أقرأه ... (ترى ما الذي يتابعون بيعه ؟) وحملت تعليقه الذي يبين «فضائل
الهزيمة للعرب» وكم كانت ضرورية ، بل ويجعل منها المنقذ الاول ،
ودخلت الاستوديو مستلبة الارادة كعادتي كلما غرس نظراته في شراستي
وصرعها . حاولت ان أقرأ ، لكن وجوه الملايين التي كانت طفلة وجدتها
وقد ازدادت شيباً وشيخوخة ... وعيونها الحمراء الدامية كبرك الدم
قد ازدادت ضراوة في غضبها وشرها ووعيدها ...

حاولت ان اقرأ ذلك التعليق ، لكنني شعرت بالخلجل امامها بسل
وبالخوف من نظراتها المتوعدة الهائجة ، وحنجرتي المخملية نبت فيها الشوك ،
وخرجت الكلمات عبر الشوك ممزقة مجرحة ...

صار صوتي مثل صرير النهاية لاسطوانة منسية تراوح ابرتها فوق
الدائرة الاخيرة ... صوت بين النشيج وآهة رجل يحتضر .
بعد ان غادرت الاستوديو هاربة من ملايين العيون الهائجة ، خلق بي
حازم مؤثباً : ماذا دهالك اليوم ؟ .. كانت قراءتك في غاية السوء .
- لانني كنت اقرأ اشياء لم اعد قانعة بها .

صرخ بي : رأسك الصغير لم يخلق ليفكر وانما ليبتظرنى في فراشي .
اذهي الى هناك وانتظريني ...

وحملت « رأسي الصغير » وذهبت ، وجاء بحسده « الكبير » ليتولى غسل دماغي من جديد... لكن تلك العيون الحمر كبرك الدم المليئة بالتهديد والوعيد كانت ترصدني ... كانت تغطي الرسادة والفراش والجدران والسقف وحتى زجاج باب شرفة غرفة النوم الذي كان يحمل البنا الريح الغربية فيما مضى ، رأيت فوقه آلافاً من هذه العيون تحديق بي بتأنيب مروع وتهديد حقيقي . عيون ملايين من الجماهير الغاضبة التي جاءت تحمل زبائنها الى المقصلة... وجمدت ليلتها الريح ومات النسيم وفاحت من البحر رائحة السمك الميت وخيل اليّ ان كل حيوانات البحر واحيائه قد ماتت وانه جف ، وفي الظلمة خيل اليّ ان فوهة هائلة قد انفتحت مكانه في جسد الارض ، فوهة معبأة بالموت الذي سيزحف علينا جميعاً .

وكنّت ليلتها مستعصية على التخدير ، وحينما اخبرته بعلايين العيون الغاضبة على زجاج الستوديو التي تلاحقني اينما ذهبت ، وتخيفني وتفسد عليّ قراءتي ، ضحك مني ساخراً ، وسألني ان كنت بحاجة الى اجازة ، وقلت له انني بحاجة الى ان اكتب قصيدة جديدة ، وقال لي ان المجلة التي يشرف عليها ترحب دوماً بقصائدي الغزلية وبرسوم فواز ، فقلت له انني لا اشعر بالرغبة في كتابة قصيدة غزلية وان فواز كف عن الرسم ورحل كأخي مع الفدائيين ...

وحينما عدت الى البيت وجدت شبحاً ينتظرني امام الباب ، وبين شفثيه مفاجأة لا تحتمل .

فوجئت بفواز صديق طفولتنا ورفيق حروفي ورفيق اخي .
سألته : أين أخي ؟ ...

الضماد الابيض الذي كان يحيط بجرح في رأسه دفعني الى تكرار السؤال بذعر : اين اخي ؟ ...
وفي صمته عرفت الجواب ...

وعرفت انني انا تسببت في مقتل سبعة بينهم اخي ، وفواز وحده نجا
باعجوبة ...

وصوته المرتجف قاطن ابدأ دهايز دماغي وهو يقول دونما تأنيب :
سمعنا صوتك وكنت تذيعين بلاغاً فهمنا منه ان احد الجيوش العربية قد وصل
مشارف القدس وسيبدأ هجومه لتحرير نصفها السليب . كنا نعسكر تجاه
بعض الجيوب الاسرائيلية والمراكز ، قررنا تطهيرها ووقفنا ذلك بحيث تصل
القوات العربية في الوقت اللازم ... وهجمنا دون ان ندري اننا سنكون
وحدنا ...

طوقنا ...

صمدنا ...

لم يصل احد.

صمدنا حتى نفدت ذخيرتنا .

صمدنا حتى لم تبق فينا اصبع تشد زناداً .

وطبعاً لم تصل الجيوش العربية كما وعدتنا البلاغات الكاذبة على انغام
« اعجاد يا عرب اعجاد » ، لم يأت احد سوى زبانيتهم . وحدي هربت .
لقد كانت غلطتنا طبعاً ان نعتمد على مصادر اذاعية لخططنا ، لكن شقيقك
حين سمع صوتك تلك الليلة على مشارف القدس التهب حماسة . وانت
تعرفين عناده ... وكان ما كان . وتهدج صوت فواز وصمت .

كالمنومة ذهبت في اليوم التالي لانايع عملي ، ولاقرأ مزيداً من الصفحات
في تمجيد « الهزيمة » التي اخترعوا لها اسم « نكسة » ، وسلمني حازم
بعضاً من سطورها المسمومة طالباً الي اذاعتها . سألتني لم أنا شاحبة هكذا ؟ .
لم ارد . دخلت الى الاستديو . للمرة الاولى لاحظت وجود الميكروفون
الاسود المنتصب كحية رقطاء ، وحينما اضيئ النور الاحمر اشارة لي
بالكلام ، تحول الميكروفون الى افعى « كوبرا » لسعني فوراً في حنجرتي ،
ومع ذلك كافحت لأقرأ ، لكن الشوك في حنجرتي ازداد نمواً مثل العليق

الخروافي ، وبدأ سم الكوبوا يسري في عروقي . يملأني بالخدر . تماسكت . بذلت كل ما في جهدي من طاقة لأقرأ سطرًا ، لكن العيون خلف الجدار الزجاجي كانت تزداد تحديقًا وضراوة وغضبًا . وفوجئت بوجه اخي بينما ثم بدأ الدم يسيل منها يسيل يسيل دم دم يغسل وجه اخي ، يغسل الزجاج ثم يتسرب الى حيث انا ، ويعلو ويعلو ويغطي قدمي ثم ركبتي ويعلو بسرعة ويغطي صدري وحنجري واختنق بالدم واعجز تمامًا عن قول اية كلمة ... فقط اصرخ واصرخ واصرخ ...

وطبعًا قطعوا البث ، واعتذروا للناس عن العطل الفني الطارئ ! وقالت الصحف انني مصابة بانهايار عصبي ... وانني فقدت صوتي .. ولكن احداً لم يصدق قولي ان الميكروفون افعى .. وان عيون الملايين كانت تنزف ... وان دمها خنقني ... وانني كلما حاولت ان ادخل أي استوديو لأقرأ ، لاحقتني الافعى ولعنة العيون الدائمة ...

وبعدها بأيام قال الطبيب ان والدي مصاب بذبحة قلبية ... وقلت لهم انه مصاب بذبحة ابوية اثر مصرع اخي ، ولم يصدق احد ... وقلت لهم ان ما يمزقنا هو ان اخي مات عبثاً ... مات ضحية التوريط ... ضحية العهر الاعلامي ... وبينما والدي يموت ارتجف صوته : حاولي ان تستعيدي صوتك الضائع ...

قلت له : لن اذيع بهد اليوم . لا يهمني صوتي ... ككر : حاولي استعادة صوتك الضائع ... انني اتحدث عن صوتك لا عن اوتارك الصوتية ... اكتبني ... حذار من السقوط في الصمت ... وتذكري أن أوتار يدك لم تنقطع بعد ... اكتبني ...

وجاء حازم يعزيني بأبي وأخي ، ولا ادري لماذا احسست وانا اصافحه بانني اصافح قاتلهما ... وجاءني ليلاً وحده ليمارس غسل دماغي ، لكن افبونه كان قد فقد تماماً تأثيره علي ... وتحذيره ..

وانطلقت في الدنيا أبحث عن مخدرات أخرى ... لأنسى .. أنسى .. ا .. ن .. س .. ي)

انا هنا في فيينا لأنسى . يجب الانسى ذلك... ما الذي حدث في هذه الرحلة بالذات ؟.. هل هو حدسي بأن شيئاً لا حَدّ لفظاعته سيقع ؟... ام ان محاولة تخدير الروح عبر تخدير الحواس ، فاشلة في النهاية ، وكل رحلة الى تل النسيان لا تنجدي ، اذا كانت الدرب اليه نهراً من الكحول وقارباً من جسد رجل ؟

ام تراه وجه فواز الذي التقيته صدفة في احد شوارع بيروت ليلة رجيلي ؟

(كنت اتسكع وحيدة في شارع الحمراء . انعطفت الى طريق فرعية تسطر عليها الظلال ، وفي ظلمتها قفز وجهك فجأة أمام عيني كالرويا . وجهك يا فواز الذي يشبه وجه اخي ... واغمدت سؤالك في صدري : حتام تتابعين هربك وتمارسين انتحارك ؟ ... متى تعودين « الينا » ؟ ... كلمة « الينا » كنت اعرف كم هي كبيرة واعرف جيداً ما تمنيه وقد صرت يا فواز مسؤولاً فداثياً كبيراً في احدى المنظمات ... ظلمت صامتة . كنت احس ان لك وحدك حق تقريعي ، لذا ظلمت صامتة . معاً ، قبل اعوام عرفنا طعم البكاء العلني (ويسميه الناس نجاحنا) . معاً كنا نخلق توأماً سيامياً للعطاء ، وكانت رسومك امتداداً لكلماتي وترجمة لها ، وكلماتي ترجمة لرسومك ... كنا اتحد حبات القمح في السنبلة ... ثم مر بي الزلزال ... لا اريد ان اتذكر ما كان ... اريد ان انسى ... ودون جواب وجدتي اهرب من عينيك ، وكان فيهما كثير من الحب والتأنيب ، وقليل من الشفقة ، لكنه يكفي ليقتل) ! ...

ليت جورجي يسارع في الهبوط من غرفته ، ويربحني من عذابات الذاكرة ... جورجي مخدري ، فهدي الجميل الفرو ، الرشيق الانقضااض . انها التاسعة . متى ينهض ... عدنا من سهرتنا البارحة في الخامسة صباحاً . انقضت اربع ساعات وهو نائم . كيف يستطيع الناس النوم طويلاً هكذا ؟ ... اما انا فقد نسيت كيف يكون النوم دونما تخدير ... اني مخدرة في كل لحظة ،

ليلاً نهاراً ، لا انام قط حقاً ولا اصحو قط حقاً .. الجرسون يعود الي . يسألني ماذا اريد طعماً للفتور . ويسكي طبعاً . يكرر سؤاله دهشاً ، اكرر طلبي بكلمة واحدة ، مثل عطش مشرف على الموت في الصحراء يطلب ماء . ويسكي . ويسكي . لماذا لا اشرب الويسكي في التاسعة صباحاً ما دمت انا سأدفع ثمنه ؟ .. انه لا يدري انني اخاف من الجلوس طويلاً امام اي حاجز زجاجي ، او جدار زجاجي . لان العيون الدامية كبرك الدم تبدأ بالزحف فوقه حين اخلد الى نفسي ، ويطل بينها وجه اخي . ثم يتدفق الدم وأحس بحلقي يخنق ... انسي عاجزة عن البقاء وحيدة في اي مكان وانا بكامل صحوي ، لان اوتاراً غامضة تبدأ بالتوثب في اعماقي ، وتركض فوقها ذكرياتي مثل يد وحشية العزف ، واسمع صوت انين مكتوم يهب من داخلي .. في البداية كنت ابحث حولي عن صاحب هذا الانين ، فقد يكون نخبثاً تحت السرير او خلف الباب او خلف ستارة الحمام ، أو داخل الخزانة ... وابحث وابحث ، وبعد مزيد من الانصات ، صرت واثقة من ان هذا الصوت يهب من داخلي انا ، محملاً بالاحزان والنحيب مثل صوت الريح القادمة من مقبرة ضحايا لم يثار لهم ...

يعود الجرسون حاملاً كأس الويسكي . اقذف به في جوفي ، واشير اليه بيدي : « كأس اخرى » ... اعاود النظر عبر الزجاج الى الشوارع .. لقد استيقظت المدينة .. ها هم الناس يسارعون الى اعمالهم وفي وجوههم بقايا النوم المعافي ... منذ زمن طويل لم أسر في قافلة الزاهيين الى العمل ... من زمن طويل هجرت كل شيء ... تجاهي كنيسة (سان استيفان) ، تأمل قرميدها الاصفر والاخضر والبني الفسيفسائي التنضيد بنسره ذي الرأسين — رمز الامبراطورية النمساوية التي لم تعد امبراطورية — يطل من عل . تخربت الكنيسة ايام الحرب وتم اصلاحها والقرميد بأكمله حديث ... انه يبدو مثل قبعة جديدة فوق رأس رجل ثيابه اثرية وعتيقة ... ولكن ، هل يمكن حقاً اصلاح اي شيء ؟ ...

(هل يمكن قط ترميم آثار الدمار في الابنية والنفوس ليعود كل شيء
كما كان ؟ كما كان ؟) ...
يعود الجرسون بالكأس الثانية .
ابتلعها واشير اليه طالبة المزيد .
تبدو الدهشة في عينيه .

لو كان مثلي ، يرى كيف بدأت العيون الدامية كبرك الدم تفتح فوق
زجاج صالة الفندق - كما كانت تفتح فوق زجاج الاستديو - لركض حاملاً
كل ما في فيتنا من كحول ... وبللس يشرب معي حتى ... ننسى ... أنا
هنا لانسى ... يجب ان اكف عن التفكير هكذا ... من الافضل ان اذهب
الى جورجي واوقفه ... ولكنه سينهض ليؤنّبني بقية النهار بصمته الشرس ...
لماذا لا انهض واكتب ؟ ...

كنت دوماً اجد في كتابة الشعر التعبير الحقيقي عن ذاتي ... ماذا حدث ؟
وهل اني اذ ضيعت ذاتي صرت عاجزة عن الكتابة في الوقت الذي اختاره ؟ ..
(رفع حازم كأسه وقال لي : ابتلي نبيلك ثم اكتب قصيدتك ،
وتغزلي بي ! ...)

قلت له : لا استطع ان اكتب الا وانا في صحوي الكامل . اعجز
عن الكتابة اذا كنت غلّة ، او اذا كنت غدرة ... الكتابة ذروة صحوي
وذروة عافيتي) ...

ولكن ماذا حدث ؟ متى كففت عن الكتابة ؟ متى بالضبط ؟ ..
حسناً . اعرف انني لم اكف عن الكتابة يوماً واحداً ، ولكنني لا اعني
الآن « بالكتابة » تلك الاوراق اللاهثة المبللة بأمطار عشرات الموانئ ، تلك
الاوراق المبعثرة التي اودعها بيوت اصدقائي كلما رحلت ، وادور بها في
حقائب السفر ، ارعى تشردها ، واحنو عليها حنوي على عذابي ... ارى
فيها الخطوط البيانية لسقوطي ... ارى فيها تفتح جراحي في حقل السطور ،
ونزفي الدائم السري ... لا ... ولكنني اعني : متى كففت عن الرغبة في

ايصال صوتي الى الآخرين؟... ومتى بالضبط فصلت نهائياً بين شيتين صارا متباينين تماماً في نظري هما : « الكتابة » و « النشر » ... وقررت نهائياً بين « الرغبة في الكتابة » و « الرغبة في النشر » وكلاهما توأم واحد في الفنان المعاني ؟.. هل كان ذلك يوم لدغني الافعى في حنجرتي وفقدت صوتي ؟... هل سقطت نهائياً ذلك اليوم ام كان بداية سقوطي ؟...

(ذلك الصباح في تموز ١٩٦٧ وصلتني رسالتان الى دار الشابات - لانوف - التي كنت اقيم فيها بشارع « ريشيلبو » بباريس ، حيث رحلت بعد الهزيمة ومصرع ابي واخي ، وبعد ان فقدت عملي في الاذاعة الرنمرد حنجرتي -- المسمى رسمياً بفقدني لصوتي -- . فرحت بالرسالتين لانه كان قد انقضى زمن لم التقي خلاله بانسان اعرفه ، قضينه في كتابة قصيدة طويلة جديدة كل الجدة ، مختلفة الايقاع والموضوع عن كل ما سبق وكتبته ، كأن اوتار حنجرتي هاجرت منها لتنضم الى اوتار اصابعي المسككة بالقلم ... وكنت قد بعثت بالقصيدة الى فواز ليترجمها الى رسوم كعادته ، وليعطيهها لحازم بعد ذلك لنشرها في المجلة التي يشرف عليها ...

رسالة فواز تودعني . يقول لي فيها ان قصيدتي شيء جديد ، وان طرحي الرمزي فيها لقضايا الجنس والدين والسياسة والهزيمة جاد ومدهش ، وانه يتمنى ان يرسمها ليظل عطائي وعطاؤه اتحاد حبات القمح في السنبلة ، الا انه مضطر الى ان يقول للرسم وداعاً ، لانه صار قانعاً بان مرحلتنا هذه ، بحاجة الى من يحمل البندقية بدلاً من الريشة ... والمتفجرات بدلاً من الاصباغ والالوان ... وانه سيكرس نفسه نهائياً للقصيدة ... وبأكثر الاساليب مجابهة عملية واضحة ومباشرة . اما رسالة حازم فكانت تقول : تجنبي مواضيع الجنس والدين والسياسة ، والا كان مصير كل ما تبعين به كمصير قصيدتك « المسترجلة » هذه ، اي عدم النشر ... تذكري ايضاً اني لا استطيع ان اشر لكاتبه سيئة السمعة ، وان اخبارك التي تصل الى بيروت كلها فضائح .. وداعاً .

عدم النشر ! اذن نحن امام اختيارين : اما ان نؤجر حناجرنا ، او ان نستكشف عن التفكير وعن طرح مآسينا الحقيقية التي تشغلنا في كتابتنا . مطلوب مني كي ينشر لي حازم ، ان اكتب معلقات تتحدث عن الحيول في عصر الصواريخ ، وعن امجادنا « امجاد يا عرب امجاد » في زمن الهزيمة ، وعن الحب العذري في ضوء القمر على الشرفة بينما الرعب يحوس بلادنا بالدمار ، ويهدم شرفاتنا وسقوفنا ، ويتهدد كياناتنا كله ، او ان اكتب ما اوامر بكتابته بلغة غدارية مداورة مخادعة تخفي الحقيقة تحت برقع الوهم بالعظمة كتلك البيانات التي كان يسطرها حازم وانولى انا قراءتها ... يومها احسست بالغضب ... بالحق ... وقررت ان اعود ، وان اناضل ضد كل الامواج المتشابكة التي كانت سبباً في هدر حنجرتي ، وملئها بالماء المالح وخنق صوتي ، وهدر اخي .

اذن بيروت تتحدث عن فضائحي ! وانفجرت اضحك .. « شرف البنت » عندهم قبل . « شرف الارض » .. وهزيمة الوطن : الفضيحة الكبرى ، يتخذون عنها باختراع فضائح صغيرة يتحدثون عنها بحسد .. والرجل في بلادي اهن عليه الانسحاب من الحرب والعودة مهزوماً بكل هدوء وصمت ، من الانسحاب مهزوماً من فراش امرأة .. يجب ان اعود .. واذا كانت حنجرتي تخنق كلما حاولت ان اقول شيئاً ، فليكن لي من اصابعي حناجر .. ولا اكتب ..

قررت ان اذهب لشراء بطاقة العودة بعد ان ازور الطبيب تنفيذاً لموعد سابق ..

وغادرت الطبيب بحثاً عن اول حانة لانسى عنها كلماته : سيداتي : اهنتك . انت حامل .. ستنجبين طفلاً جميلاً مثلك ..

طفل جميل ! .. ابن ليلة العاشر من حزيران ، ابن لحظات التخدير المجنون هرباً من الهزيمة ، كيف يمكن ان يكون جميلاً ؟ .. كيف كيف كيف يمكن ان يكون ؟ .. وبدأت اشرب ، وخوف حقيقي يملأني كلما

نظرت الى بطني .. كنت اتخيل تارة ان كائناً هلامياً يسكنه . بشعاً ومشلولاً
كالهزيمة .. وكنت اتخيله تارة أخرى تنبهاً من القبح وتجسيداً لحمياً لكل
الامراض النفسية التي كونه : هو ابن الهزيمة ..

وغادرت البار وانا اعرف انني احمل في احشائي ابن الشيطان . احسنت
بالعار ، لا لانني حامل بلا زواج ، ولكن لان ذلك الطفل - الشيطان ،
سيظل ابداً يذكرني .. عار الهزيمة ، وعار التخدير عنها .. إنجابي الذعر ..
كيف سأقضي بقية عمري - ان كانت هنالك بقية - مع ذلك النصب
التدكاري الحلي لفضاعة كل ما كان .. اي رصيد انتقام احمل في احشائي ..
ابني ، ابن الشيطان ، امقته واحبه في الوقت نفسه بالمقدار نفسه .

ولم اذهب ليبتها لشراء بطاقة طائرة .. ووعيت وعياً مبهماً بانني صرت
محكومة ابداً بالغربة .. محكومة بان احترف السياحة ، وامتنع التخدير ،
واستوطن الضياع ، واستميت لانسي .. انسى .. ا..ن .. س .. ي ..) ..
ايها الجرسون ، هات كأساً اخرى ، فيها هو النهار قد فغر عينيه في
وجهي ، والظهيرة اقربت ، وجورجي لم ينهض بعد ، وانا ازدادوعياً بكل
ما كان ، بفضاعة ما كان ... استعصى على التخدير .. منذ جثت فيينا وانا
استعصي على التخدير ، رغم انني جثتها وكلي أمل في النسيان .. اخترتها لأنني
سأكون فيها خرساء وصمّاء ما دمت لن افهم حرفاً مما يقال ولن اقرأ صحيفة
ولن أفهم نشرة الاخبار ولا تمتعات الاصدقاء .. وجورجي سيظل صامتاً ..
وسأحيا في عالم من السكينه الساكنة .. هذا ما كنت احلم به قبل مجيئي ..
ولم أكن ادري ..

انه حين يصمت العالم الخارجي تماماً ،

ستبدأ اعماقي بالانين والعويل ،

وان حنجرة مقطوعة الاوتار ،

لا تعني بالضرورة ذاكرة مقطوعة الاوتار ،

وان عمر الذاكرة اطول من عمر الجرح ،

وان فيينا بالذات لا تملك الا ان توظف جرحاً كجرحي ..
.. فيينا ..

عتيقة حزينة مثلي ..

فيينا الامبراطورية الهرمة كقلبي ، فيينا المتأكلة كأياامي ، فيينا شاهدة
عالم يتداعى واذا لم يتجدد انتهى ، فيينا حيث البط الابيض الكسول ،
يجوس بهدوء وصمت مطلق - لا ينتميان الى عصره - فوق سطح البحيرات
الساكنة التي تتوسط الحدائق التي تذكر بجزر آكلي اللوتس .. جزر النسيان .
وانا بطة بيضاء حزينة اركض من خط الاستواء الى القطب بحثاً عن حديقة
سكنية ونسيان . ولكن هل النسيان ممكن ؟ وبالمقابل هل الترميم ممكن ؟
فخارج الحدائق ، يركض الاطفال الى مدارسهم ، ويطالع الشبان الكتب
الملثية بالافكار الجديدة وفوقها تركض الصواريخ ، وبط النسيان الابيض
اضحي محاصراً ومهدداً .

ثم ان الصمت لم يكن قط مطلقاً وكلياً في فيينا .. هنالك تلك الموسيقى
الغامضة في الجو .. ذلك المزيج من المجد الغابر المخدر ورحيل المرافء
القديمة والتوق الى التجدد .. يخيل الي ان عباقرتها الموسيقيين امثال بيتهوفن
وهايدن وشتراوس وموزار وشوبرت ، لم يفعلوا شيئاً اكثر من الانصات
الى الالخان المتناثرة في اثير فيينا والتقاطها ثم تدوينها ثم اعادة بثها . كل
التقطها بأسلوبه ولكن الموسيقى ما تزال في الجو .. انها صوت حضور
المدينة وتنفسها بكل ما فيها ، بتاريخها وبحاضرها ، صوت البيوت بطابعها
الخاص العريق ، والكنايس التي تضيء في الليل وتصير احجارها ينقوشها
مثل قطعة من (الدانتيل) الابيض فوق مخمل الليل الاسود ، صوت احيائها
القديمة التي تفخر بعثتها وتدون على ابوابها تاريخ بنائها الذي يرجع الى
ما قبل قرون بكل فخر ، وانا لا املك الا ان اسمع هذه الاصوات المنبهة
للذاكرة ، كما اسمع صوت ضحك الاطفال في عجلة مدينة ملاهيها ،
تلك العجلة الضخمة التي يساوي ارتفاعها ارتفاع تل وحينما يتصادف ان

تتوقف ويكون مقعدك في الذروة ترى فيينا وقد انبسطت تحت قدميك .
(توقفت العجلة ونحن راكبان في المقعد الذي تصادف وقوفه في الذروة .
في القاع ، بدت فيينا حفنة من الاضواء المنناثرة ، ودبعة وبرينة ،
تذكرني بمشهد دمشق من جبل قاسيون المطل عليها .. دمشق .. انفجرت
ابكي ودفنت وجهي في صدر جورجي ، أبكي واهذي : « منذ ثمانية
اعوام .. منذ هجرنا دمشق عرفت الدنيا ولم اعرف الطمأنينة او اليقين ..
كنت اراها هكذا من قمة قاسيون ، تماماً كهذا المشهد ، مضئنة وطيبة ،
وكان اليقين يملأني بالرفاء كلها ، اليقين بالحب والرجل والوطن
والمستقبل .. اي عذاب كانت الطبيعة تحتزن لي .. اي عذاب .. » وجورجي
صامت . كم هو رائع ان يكون اخرس لان ليس هنالك ما يقوله اي
انسان ليرد على عذابي .. وتهوي العجلة بنا الى القاع ، واصرخ ، اصرخ
بأعلى صوتي : لا .. لا اريد ان اسقط .. اعيدوني الى قمة قاسيون ..
اعيدوا دمشق الى قلبي .. اعيدوني الى قلب دمشق . ويأتي الموظف المكلف
بإدارة العربية ويطلب الي المبوط منها وقد ظن ان الارتفاع اخافي ..
لو يدري ان ثمانية اعوام قد انبسطت امامي في لحظة ، وكان لا يمكن
الا ان اصرخ واصرخ واصرخ .. واحسد جورجي العاجز عن الصراخ) ..
صوت دقات ساعة صالة الفندق ... انها اللغة الموحدة في اقطار العالم
كله ... لا املك الا ان افهمها ... تدق ١٢ دقة او اكثر لا ادري ... لا ..
كانت ١٤ دقة ... لا يهم ... لم احص كم كأساً من « ماء النار » شربت .
وليس من الضروري ان أعد الآن دقات الساعة ... فلامعن ضياعاً ...
كأس اخرى من ماء النار ايها الجرسون ... اخاطبه بالانكليزية ودونما
اشارات ... ما جدوى ان انذر « صيام الصمت » اذا كانت الجدران .
حتى الجدران الصامتة صارت تخاطبني ...
(جدران درج بيت بيتهوفن عتيقة ومهترئة ، تنزف وحشة وهمهمات ،
تروي كم مرة سقط بيتهوفن على احجارها ، كم مرة نرف ، كم مرة

تمسك بجدرانها جاراً جسده الى « وكره » . بصمات اصابعه على الدرابزين تروي حكايا جوعه وثملته وعذاباته ...

كنت قد اصررت على زيارة بيت بيتهوفن في فيينا لولعي العظيم بموسيقاه ، ورافقتي جورجي لسرى اين عاش ذلك العبقري ، وأين تمزق ، واين انطلقاً ، واين داهمه الصمم الذي حرّره من سماع تفاهات المحيطين به .

ادور في الدار الصغيرة المتواضعة ، المكونة من غرفتين صغيرتين ونافذتين كبيرتين ، اتأمل الجدران بحثاً عن بصماته . ألاحظ انهم اعادوا طلاءها حين حولوها الى متحف صغير . ورغم ذلك اسمع همهمات غامضة ما تزال تفوح من الجدران ... اصوات يختلط فيها الكلام بصوت تنفس صدر مذبوح .. كلما شاهدت اشياء بيتهوفن المتناثرة يزداد الصوت نفاداً الى اعماقي ... ها هي خصلة شعره ... مقبض بابيه ... علبة أوديته ... معزفه ... علبة سكره ... ادور بينها واسمع الاصوات النازفة من الجدران تتعالى وأحس ببعض الدوار ، وفي قاع الاصوات اسمع مقطعا من السيمفونية التاسعة نائي العزف كأنه آت من عالم آخر ... واطل ادور بين اشياءه ثم التحجر أمام ورقة من اوراقه ..

انها وصيته ... بالاحرى رسالة كتبها تمهيداً لانتحاره . يعلن فيها قرفه من الحياة وعيها ، وبأسه من الآخرين وحقاراتهم الصغيرة والكبيرة .. كتبها يومئذ ولم ينتحر ... لماذا لم ينتحر ؟ ... وكأنني اكتشفت للمرة الاولى امكانية الانتحار ، وبالاخرى استوعبتها للمرة الاولى ... وسمعت ضربات السيمفونية التاسعة المجنونة ... ووجدتني اصرخ بملء صوتي - وبالعربية - وانا ابكي : « نسيت ان انتحر ... كيف نسيت ان انتحر . لماذا لم تذكرني يا جورجي ؟؟ » ...

وبلغت الزوار القلائل في المتحف الصغير نحوي بكثير من التأنيب الصامت والاذراء ... يضمني جورجي الى صدره ويهرب بي من النظرات المفترسة ...

شعرت اني بدأت أنهار علناً . لكنني كنت فرحة . لاكتشاف إمكانية الانتحار كأنني لاحظ ذلك لأول مرة في حياتي ...

خرجنا من بيت بيتهوفن ... استقلنا سيارة صديق كان قد اعارنا اياها ، وقادها جورجى عبر حي «جرينزيك» ملتقى فنانى فيينا الى تل مليء بالغابات ، ثم استدار في طريق جانبية مقفرة تماماً ، وكانت عيناه جمرتي غضب مخنوق ، وحين اوقف السيارة فجأة قرب دغل كثيف ، خيل الي أنه سيخنقني ، ويدفن جثتي ، ثم يعود وقد استراح من نوباتي المفاجئة ، التي لا يرى لها مبرراً ، فأنا لم اخبره قط بما يتأكلني من الداخل ... لكنه لم يفعل . بدلاً من ذلك ، هبط الى الغابة ، وانتقى شجرة كبيرة عائق جذعها بيديه ، ورفع رأسه الى السماء التي كانت تغطيها فروع الاشجار ، واطلق من صدره صوتاً كهواء ابن آوى في ليالي الصقيع والعاصفة ... وأشار اليّ ان افعل مثله . مذهولة ، تعلقت بالشجرة العتيقة كأم ، ورفعت رأسي الى الاعلى ، وبدت اغصان الشجرة مثل الدرب الخضراء الى السماء ، وعويت مثله بملء صوتي ، بملء جرحي ، بملء احتمان حزاني ... ادهشني كم استرحت لذلك الانتحاب البدائي كأنني حواء تبكي مصرع اول اولادها ... وظللنا هكذا نعوي كذئبين يطرحان استلتهما الحائرة واحتجاجهما اللامعدي في وجه صمت الغابة والسماء والعالم المقفر والمرافيء الراحلة ... ثم شعرنا بالاعياء ، وبالعرق يغطي وجهينا ، وسقطنا تحت الشجرة متلاصقين ... واكثر تعباً من ان نبكي او ننعانق ...

شيء ما في فيينا فجرّ جرحي منذ لحظة وصولنا . كل ما في فيينا فجرّ جرحي . أم تراه لغم الجرح قد نضج ؟
ايها الجرسون هات كأساً اخرى . ربما كان من الافضل ان اوقف جورجى .
فالترك جورجى يستريح مني قليلاً ، فقد حيرته وأرهقته بهذه الرحلة ، وسببت له كثيراً من الحرج امام العيون الفضولية .

(هبطت وجورجي من انطائرة وركبنا سيارة شركة الطيران التي تقلنا من المطار الى مدينة فيينا... فوجئت بأن مدخل المدينة كله مقابر . مقابر على جانبي الطريق ، مقابر من كل الالوان ... من الرخام الاسود ، والرماذي ، والابيض .. كلها يلتصق في المطر . ركاب الباص كان اكثرهم من العجائز - سياح اغنياء - وبدوا مرهقين اثر رحلة جوية حفتها المفاجآت والمخاطر . كانوا صامتين كركاب قطار الموت ، والسيارة تنزلق بنا بين المقابر ... مقابر لا نهاية لها ... وغرقت في كابوس مروع ... ايقنت لسبب اجهله ، اننا جميعاً نحن ركاب « الباص » ذاهبون الى حيث ندفن وانهم جميعاً مثلي قد ماتوا منذ خمسة اعوام في مكان ما .. وزاد في احساسني هذا ان سائق « الباص » لم يكن مرئياً . كانت هنالك غرفة خاصة به تحجبه عنا ... وخيل الي انه مارد بعين واحدة سيتسلى بحفر قبورنا بينما هو يغني .. وصرخت احذرهم ... وصرخت ... وعبتاً اسكتني جورجي وركاب الباص الذين تطوعوا باسداء النصيح اليه بحملي الى الطبيب النفسي) .

لقد سببت له الحرج حتى بضحكي ...

(كنا في قصر (شونبرون) الامبراطوري الذي حولوه الى متحف ، نقف في غرفة « المرايا » التي عزف فيها موزار لاول مرة ، وكان عمره ست سنوات ... انها غرفة تغطي جدرانها المرايا ، وحين تقف بينها تنب لك داخلها ملايين الصور ... وقفت ، ورأيت داخل المرايا نسخاً عن وجهي لامتناهية العدد ... ملايين من عيوني أحقدق فيها ... وتساءلت اية واحدة هي انا ... وارتعت والا اعني فجأة وعملياً انني كلهن ... انا اكثر من امرأة واحدة ، ومنذ اطاحت بأخي تلك القنبلة في القدس انقلبت عربة عمري ، وتدهورت ، وتغزقت: وعند كل منعطف انشطر عني وجه مني ، وصرت اكثر من امرأة واحدة ، تعيش عمراً اقل من واحد ! ... وكنت كيفما تحركت بين المرايا ارى مزيداً من وجوهي تحقدق بي وكل وجه يذكرني بلحظة من لحظات عمري ... وانفجرت اضحك ! اية لعبة شيطانية

هي هذه المرايا . يجب ان احطمها . ورفعت مظلي الواقية من المطر
لاكسرها وانا اضحك بجنون ولكن يد جورجي الذي كان يراقبني كانت
اسرع من يدي ... وقبل ان يقول احد شيئاً من السياح المذهولين او ينادي
رجال الشرطة سارع يشدني الى الخارج لنمضي الى غابة العواء ، وعند
جذع الشجرة نفسها نرفع احتجاجنا الى الوجود كالذئاب الوحيدة ...
نعوي ونعوي ... ونستريح ...) .

ايها الساقى هات كأساً اخرى ... اشعر برغبة في العواء ، الآن ، فقد
ادمنت هذا الاسلوب لأهدأ ... ماذا لو انطلق عوائي الآن في الفندق ؟ ..
سيركض موظفو الفندق ويطلبون سيارة تنوح وهي تلملم (مكسوري
الروح) من شوارع المدينة وتقلهم الى حيث يصيرون نهائياً بظاً ابيض في
غرف آكلي اللوتس والنسيان ... ارى بوضوح اني اركض في درب
الجنون ، وخلال ايامي في فيينا قطعت شوطاً عظيماً ... تراها موسيقى
المدينة واثريها المسكون بشهقات الماضي ؟ ام تراه حقل القبور الشاسع الذي
عليك ان تمر به في طريقك من المطار الى المدينة والذي كان اول ما طالعه
عينا في فيينا ؟ أم تراهما عينا فواز ليلة رحيلي ؟

(لماذا كان وجهك يا فواز آخر وجه أراه في بيروت تلك الليلة وانا
في الدرب الى رحلة تخدير اخرى ... وجهك يا فواز رفيق موت اخي
السريع ، وموتي البطيء ... لماذا اغمدت سؤالك في صدري : حتام
تتابعين هربك وتمارسين انتحارك ؟) ..

ايها الساقى هات كأساً اخرى ، فالعيون الحمر كبرك الدم تعاود زحفها
فوق الزجاج امامي ... من مكان ما ينبعث صوت معزوفة اعرفها جيداً ...
معزوفة « الدانوب الازرق » ... يحبونها كثيراً في هذا الفندق وبحبون
شراوس ايضاً ... استمع اليها واتذكر انني عرفت الحب اول مرة بينما
كانت انغامها تلف جسدي ..

لم يعد في وسعي ان استمع اليها بحياد ، وحتى بعد ان كبرت وتجاوزتها ،

وصرت احب بيتهوفن وباخ وسيبيليوس واحياناً رخمانينوف وتشايكوفسكي :
ما زالت تهزني . ما زلت أحس وانا اسمعها ، بالعرشة التي احسها كلما
رأيت دبي الصغير الاصفر المحشو بالقش والذي طالما ضممته الى صدري ،
لأنام أيام كنت طفلة ... معزوفة « الدانوب الازرق » هي عندي حفارة
الذكريات .

(تلك الامسية الغابرة من نيسان ١٩٦٧ عدنا من يوم تمتع ضم رفاق
العمل ... ركبت مع حازم ليوصلني الى بيتي لكنه اوصلني الى بيته .
فرحت . حينما ضمني أول مرة اندفع الدم الى جلدي حتى خشيت ان
يرشح من مسامي كلها ... كان ممدداً على الارىكة وقد جلست الى جانبه ..
قبلني طويلاً ثم صرخ بي فجأة وكله غيرة : كيف تسمحين لي بتقبيلك ؟ ..
لم أرد . اعتبرني غانية فازداد شهوة مغناطة وزادني عناقاً . كنت يومها
نقية كغلة بيضاء ، ولم تكن لدي اية رغبة لاثبات ذلك او عكسه . كانت
موسيقى الدانوب الازرق تصدح ، فاغمضت عيني ، وتركت شفتيه
ترحلان في مجاهلي ، وحلمت بانني وياه في قارب من الضياء ، نبحر
فوق نهر الدانوب الشديد الزرقة ، كسماء اول يوم اشرقت فيه الشمس
على الكرة الارضية) .

معزوفة الدانوب الازرق ما يزال صوتها يعلو ... كيف لم يخطر في
بالي ان اذهب وارى الدانوب ما دمت هنا في فيينا ؟ فلأذهب الآن ...
فلأذهب ولأرّ الدانوب الازرق بعد ان حلمت به طويلاً ، وتعبت من
الاحلام .

استقل اول تاكسي . عادت امطار الصيف الغاضب تتفجر . يدور
التاكسي بي في الشوارع . بعد قليل نصل الى جسر كبير من الاسمنت تمر
تحتة مياه موحلة وعلى جانبيه ترتفع مداخن المعامل ويقول لي السائق : هذا
هو الدانوب يا سيدتي .

اهبط من السيارة وانا اتعثر . تراني ثملة ؟ اتمسك بافريز جسر الدانوب ،

واتأمله غير مصدقة ... ابن قارب الضياء ، وابن الدانوب الشديد الزرقه
كسماء اول يوم اشرقت فيه الشمس على الكرة الارضية ؟ ... ها هو مرمرى
امامي ساقية كبيرة من الوحل الصديء ، مثل نهر من الرماد ... كأنه مملوء
برماد الحب والرجل والوطن وحازم ...

نهر « الدانوب الازرق » ! النهر الرمادي الكامد ، تهب منه روائح
غير مستحبة ، وتجوبه قوارب تجارية محملة بالحديد والحديدات والسواعد
المتعبة ، وما هي مياه المعامل ونفاياتها تصب فيه فتحيله في بعض المواضع
بنياً أسود مثل دم مخثر ... نهر الزرق العتيق ، نهر رماد الاوهام ! ... واغرق
في حزن نقي لم اعرفه منذ عصور . لأنها تمطر ، لن يلحظ سائق التاكسي
انني ابكي ولكن يبدو انه يلحظ خيبي . يسألني بانكليزية مكسرة ضاحكاً :
هل كنت تظن انه ازرق ! .. جنين السياح الذين آتوا بهم الى هنا يشعرون
بالخيبة لأن الدانوب رمادي وليس ازرق ... ولانه مجرد نهر عادي كبقية
الانهار ... اعود الى السيارة التي ما زال محركها دائراً ، وبينما هو يتحرك
بها باتجاه الفندق ارد عليه بالعربية : لا اعتقد ان أحداً حزين من اجل نهركم ..
كل منا حزين من اجل (دانوبه) الذي كان يظنه ازرق الضياء واكتشف انه
نهر من رماد كهذا النهر ... اسمع يا سائقي العزيز ، لا تظن انني ثملة لمجرد
انني شربت ماء زجاجة من ماء النار ... لا ... اننا في الحقيقة نقف يحزن
امام نهركم لأننا نرى عبره انهار أعماقنا التي جفت والتي استحالت دماً
مخثراً ... وفي مياهه الرمادية المطفأة نرى منفضة سجاثر عمرنا المليئة برماد
ايامنا وأوهامنا ... اننا لا نعتب على كذبة مواطنك شراوس ... لا ... اننا
نعتب على الحياة واكاذيبها الكبيرة ... فأحلامنا الزرقاء كبحر بكر ، وأحلامنا
الوردية كبشرة طفل ولد للتو ، كلها كلها تحالفت عليها قوى الشر البشرية
والوجودية ... وما لم يفسده الموت المتربص بنا والغدر في الولادة والموت ،
أفسده الغدر في طبيعة من حولنا ... اسمع يا سائق التاكسي ... لا تظن انني
ثملة فأنا لم اشرب اكثر من زجاجة ويسكي ، ولكنني اريد ان اقول لك

ان بلادي قطع من الجلادين الاذكياء وقطع من المواشي الاغبياء امثالي ...
عبث ... عبث ... عبث .. باطل الاباطيل كل شيء باطل .. حياتنا في
بلادي هباء ضائع ما داموا يتآمرون عليها ... وحتى موتنا هناك هباء ضائع ...
الحياة ، كل حياة ، اكدوبة ، الحياة السعيدة اكدوبة كبيرة ، والتعيسة
اكدوبة صغيرة ، لكنها كلها اكدوبة نرغم على اداء دورنا فيها ما دمنا لا
نخير في اي عصر نولد وفي اي جسد وما دام لا يد لنا في توقيت موتنا ...
ألسنت من رأيي يا عزيزي السائق ؟ حسناً : ألا ترى معي ان الموت يطاردنا ،
الزمن يسطر على اشياتنا الجميلة ؟. سخرية الوجود تلاحقنا بضحكاتها ،
والبحر الى الحب يسوطنا في ركض بلا نهاية .. لقد حاولت يا صديقي
السائق - اذ وعيت ان كل دانوب احبته لم يكن ازرق - ، ان اهرب
من الالم والخوف والحب لأخيا ... وها انذا حزينة ، مرمية في تاكسيك
تدور بي في شوارع ماطرة غريبة ، وانت حتماً تظنني ثملة لمجرد انني اهذي
بصوت عال واعجز عن السكوت ... واشعر بأنك لا توافقني على آرائي
لأنك صامت لا ترد ، ولن يدهشني أن تتوقف يا عزيزي سائق التاكسي
لترمي بي وبمنجرتي المسكونة بالشوك الى احدى برك الوحل ... لاحظت
انه لا توجد برك وحل في شوارعك وانت بالتالي لا تستطيع ان ترمي بي
في بركة وحل . انفجر ضاحكة لذلك الخلاص الفريد . اجل ! ها انا يا
صاحبي يا سائق التاكسي قد هربت من الوطن لانجو من عذاباته ولاعيش
بطة وادعة في سكنة النسيان الابيض ولاعرف السعادة ... ولكن يبدو انه
لا سعادة خارج اطار الوطن والآخرين ... لا سعادة في المطلق ، الا عبر
لحظات التخدير التي يعقبها عذاب مروع ...

(تناولت قرص السكر وعليه قطرة من المخدر المدهش الـاس .
دي . بدأت اظير في سماء ملونة بالنجوم والفرح ... كانت الوجوه تتدلى
كالمصابيح الجميلة ، وكنت أطفئها فشكرني لاني تفضلت بأخذها ...
لم أكن بالضبط أظير ، ولكن كانت هناك موسيقى في الجو تأتيني

كريح من قوس قزح ، وترفعني في أضواء الفضاء . ثم نبتت لي أجنحة من نور ، ثم ناديتي الشمس فاتجهت اليها في طيران لامتناه وقد ركبت فوق نسر له وجه حازم ، كان يحضي بي في دأوب شديد الزرقة ممتد كجسر من الأرض الى الشمس . لكنني لما استيقظت كنت في حال من الاعياء لا حد له ... كنت مريضة منهكة مستنفدة ، وقد لاحظت أن جورجي قد قيدني الى أحد المقاعد بحبل لفه حولي ... وصرخت أسأل عن السبب ولم يرد ، ثم خبرتني أخته انني بعد أن تناولت الاس.دي وبدأ مفعوله يسري ، خلعت ثيابي وركضت الى النافذة لاقفز منها مؤكدة انني سأطير الى الشمس راكبة نسرأ له وجه رجل ... وانني كنت أقاوم بوحشية وضراوة كل من يحاول ان يحول بيني وبين « الطيران » من النافذة ، ولم تكن هنالك وسيلة لمنعي من السقوط الا بشد وثاقي ... وبعد أن فكوا وثاقي علمت انني ظللت هكذا اثني عشرة ساعة ، وبقيت بعدها ثلاثة ايام مثل طير أحرق الخليلد ريشه وجناحيه) ...

لا يا صديقي سائق التاكسي ، صحيح انني ثملة ولكن شفاء الروح عبر تخدير الخواس مستحيل فيما يبدو ...

لماذا أوقفت السيارة ؟

هل أنت غاضب ؟

ما هذا البناء الذي تقف أمامه ؟..

لماذا لا ترد يا صديقي سائق التاكسي ؟...

هل أنت حزين من أجل قصتي ؟ هل أنت ميت ؟.

امد يدي لأهزه ، لأؤكد من انه لم يمّت فجأة بالسكته القلبية أو السكته الحزنية . تصطبم يدي بالزجاج ، بزجاج بارد ، وألحظ للمرة الاولى وجود لوح من الزجاج يفصل بين مقصورة سائق التاكسي والمقعد المخصص للركاب خلفه . اذن كان بيننا الزجاج . اذن لم يسمعي . أتحمس الزجاج بأسي . كيفما تحركت هنالك لوح من الزجاج ينتصب بيني وبين الاشياء ...

(ذات مرة كان جورجي يقبلي وانا مغمضة العينين . لا أدري لماذا أحسست بالبرودة تسري في عروقي ، كما لو كنت ملصقة الوجه والشفتين فوق لوح من الزجاج البارد ... خيل الي أن جورجي وجميع الرجال يقبلوني عبر لوح من الزجاج البارد وكل منا يقف في جهة منه ... فتحت عيني ولم أر الحاجز الزجاجي ورغم ذلك كنت واثقة من وجوده) ...

سائق التاكسي يصرخ بي : ٢٠٠ شلن من فضلك .
ادفع . أسارع الي داخل الفندق وقد غسلني مطر الصيف الغاضب ... الموظف الذي فتح لي الباب شاهدته اثنين . كومضة برق ادرك بسرعة أنني ثملة ... جورجي . يجب ان أوقف جورجي .

أركض نحو المصعد . يلحق بي موظف الاستقبال . رسالة لي . غير ممكن ، فأنا لا أعرف أحداً هنا ولا أحد يعرف انني هنا ... رسالة من جورجي ؟ لماذا يكتب لي جورجي رسالة ؟ ... اركض الي غرفتي وأنا أقرأ فيها الكلمات القليلة :

« سيدني ... لانني أحبيتك حقاً رضيت أن أكون لك حقنة مورفين مخدرة ، واذناً تنصت ...

صراخك وجنونك أمام الناس في الشوارع والمتاحف احتضنته .
حزنك الذي لا حدود له بذلت كل جهدي لاكون نشافة تمتصه ...
لكنني بعد ما رويته لي ليلة البارحة صرت قائناً بأن حل مأساتك لا يكمن في التخدير ...

لست قطرة شارع عادية رغم كل جهودك في أن تصبحي كذلك ...
واجبي ماضيك من جديد ... وابحي لنفسك عن موت آخر ... وداعاً
اذن ذهب جورجي .

لا يهم . ما الفرق ؟ . أستطيع ببساطة استبدال ابرة مورفين بأخرى ...
يقول انه ذهب بسبب ما رويته البارحة له .. البارحة .. ماذا رويت له البارحة ؟ أجل .. رويت له نكتة ... هل يمكن أن يكون قد ذهب لاجل

نكتة ؟ أذكر بوضوح ما حدث . وما رويته له منذ ساعات ...
كنا نشرب الخمر في ذلك المطعم « يجريزنك » . حي الكتاب والفنانين
والمجانين ... وكنت غارقة في صدره تل النسيان : أرافق الموسيقى والمغنين
بالالمانية التي لا أعرفها مثل بقية الحضور الذين استفاض بهم الطرب حتى
خرج بعضهم الى المسرح يرافق الرقص الشعبي النمساوي ... وكان في
بعض مقاطعه يشبه الدبكة اللبنانية ...
بعد قليل أسكتونا وقالوا ان شاباً سوف يعزف على آلة نمساوية عتيقة
جداً . وجاءوا بالآلة وإذا بها « القانون » الدمشقي الشرقي العربي العتيق ..
وبدأ الشاب بالعزف ، ونبت وطني في قلبي فجأة ممزقاً كل ستائر النسيان ...
وتصاعدت في دهاليز الذاكرة أبخرة الماضي لتكاثف صوراً ووجوهاً
وأصواتاً ...

وركضت الى مدخل المقهى وجلست على الرصيف . لحق بي جورجي ،
ووجدتني أروي له نكتة ...

(باريس - ١٤ تموز ١٩٦٧ - العيد الوطني ، وباريس مجنونة بالفرح
والجماهير التي تحتفل بذكرى الثورة وتهديم الباستيل ... لا شيء يمزق القلب
أكثر من فرد قادم من وطن مهزوم ووجد نفسه فجأة في مدينة يحتفل قومها
بنصرهم وإمجادهم .. خصوصاً اذا كان ذلك الفرد المهزوم قد خرج للتو من
عيادة طبيب ...

وكنت قد غادرت للتو عيادة الطبيب بعد ان تخلصت من طفل العاشر من
حزيران في احشائي ... كنت ما ازال انزف دماً حينما غادرت العيادة ،
فقد أمر الطبيب بإجرائها ذلك اليوم بالذات ، لان باريس كلها في اجازة ،
وحتى المرض في اجازة ، ونستطيع الانتهاء من الامر بسرعة تامة ... وربما
لانه كان بحاجة الى السوار الماسي الذي أعطيته اياه مقابل العملية .. عبثاً
حاولت إيجاد تاكسي ... واضطرت للسير من العيادة الى شارع « ريشيليو »
حيث كنت أقوم . وصلت مهدمة وقد ذهب عني تأثير البنج .
بين اعمدة « الكوميدي فرانسيز » المجاور لدار الشابات (لانوف)

حيث كنت أقوم ، شاهدت شبح حازم . ظننتني أهذي اثر عملية الاجهاض ، وساعة السير التي أعقبها ، والحماهيم المحفلة تتقاذفي ، والشباب السكارى يحاولون قسري على الرقص معهم ... لو يدرون ... أجل ! شاهدت « حازم » ولم أكن واهمة . قال لي بلهجة جافة ، وبسرعة قاتل مأجور يريد أن يغمد خنجره سرّاً ويهرب : لم اجدك في دار الشابات وتركت لك رسالة هناك .

— ماذا تريد مني ؟

— لا شيء أبداً .. بصراحة ، أنا هنا في شهر عسل . تزوجت من فتاة محترمة .

— ماذا تريد مني ؟

— أريد الا تسبني لي أية فضائح . فقد خفت ان تعرفني من السفارة انني هنا ، وتحصلي منها على عنواني .

— ماذا تريد مني ؟

— اريد أن أقول لك ان تبتردي عن طريقي تماماً ، وألا تحاولي الاحتكاك بي حتى بحجة العمل ، لانك صرت غانية .. سيئة السمعة .

— لنفترض انني صرت غانية ، لماذا يضايقك ذلك أنت بالذات ؟ كنت أظن أن ذلك يقربني منك ...

— انا رجل محترم تزوج من سيدة محترمة .

كلمة « محترم » لا أدري لماذا بدت لي نكتة رائعة . محترم ...

— يا سيدي المحترم ... حولت خنجرتي الى فومس ، وشاركت في تحويل مؤسسات الاعلام في بلادي الى بيوتات للعهر ... يا سيدي المحترم المحترم .

— راقبي كلماتك ...

— انكم لا ترون في « العهر » فظاعته الا حينما يتجسد في جسد امرأة ...

اما عهركم في السياسة والاخلاق والممارسات كلها فانكم ترون به دون ان يرف لكم جفن يا سيدي المحترم ..

— راقبي كلماتك ...

— يغلي دمكم لمأى امرأة توسخ جسدها وذاتها كي تصبر مثلكم وتنمي اليكم ، تجنون امام جسدها المستباح ، ولا تحسّون بشيء امام جسد الوطن المستباح ... وطني غانية التاريخ ...

— راقبي كلامك ...

عبارة « راقبي كلامك » أحسستها نكتة . نكتة رائعة . (المراقبة !) . هذا حلهم الموجود لتغطية كل الحقائق .

صرخ بي : في أي فراش كنت ؟ .. اذهبي الى المرأة وانظري كيف تبدين ...

قلت له : كنت في فراش حديدي لطيب وقد قيّد كلاً من ساقى الى مفصل متحرك متفرع عن الفراش ، وكان الطبيب رائعاً ، فقد فقدت وعيى بين ذراعيه وحينما استيقظت وجدت في طشت بين ساقى الفراش الحديديتين كمية من الدم والانسجة هي طفلك وطفل ليلة الهزيمة في حزيران ... وانفجرت اضحك . ولا ادري لماذا لم تعجبه النكتة فيما يبدو لانه لم يضحك وانما غطى وجهه بيده وهرب من أمامي وابتلعته جموع المحتفلين بعيد نصر فرنسا ...) .

كانت هذه هي النكتة التي رويتها لجورجي .

ما الذي أحزنه فيها ؟ غريب طبع الرجال . حس النكتة لديهم قاصر . هجرني لاجل نكتة . لا يهم . فلأهبط الى صالة الفندق ولأبتلع مزيداً من الويسكي ، ولأختار رجلاً أعبته في ابرة مورفين جديدة .

أنا في الصالة ... في المقعد نفسه . أمام الجدار الزجاجي نفسه . وسماء عاصفة الصيف المتبلدة ما زالت تحتل نصف المشهد . يركض في عروقي النمل بدلاً من الدم ... وجورجي قد رحل — لا فرق — الفارق الوحيد هو ان شاباً وسيماً قد احتل المقعد تجاهي ... ويده صحيفة غرق بين سطورها . قررت بغيرة ذواق الخمر : هذا الرجل يستطيع تخديري لليلة على الاقل .. اعتدل في جلستي . أنزع عن عيني نظارتي كما أفعل دائماً حينما استعد

للصيد ، لكنني أعيدهما بسرعة وقد لمحت في الصفحة الاولى لصحيفته
صورة أعرفها ... صورة فواز .

(أم تراني دخلت نهائياً أرض الجنون ولم أعد أتا رجح على الخط الفاصل
الواهي بين أرضه والواقع ؟) ...

أجل ! انها دونما شك صورة فواز . تراني أحلم ؟ لا ... ها أنا أقرأ
بوضوح اسم الجريدة . « الميرالد تريبيون » . واسم فواز أيضاً أقرأه بوضوح
في العنوان . انتزع الجريدة من صاحبها دون استئذان وأركض الى غرفتي .
لا أدري ان كان هناك من يلحق بي . أقفل بابها من الداخل وأقرأ الخبر :
مصرع زعيم فدائي في بيروت بعد انفجار قنبلة في درج مكبته ، ثبتت بحيث
تنفجر تلقائياً متى فتح الدرج .

وصورة لفواز وقد مزقه الانفجار .

لاحظت ان الانفجار قذف بيده بعيداً عن جسده .

يده التي كان يرسم بها ...

بقيت يدي ...

أتأملها ...

في الطائرة العائدة من فيينا الى بيروت ، أول طائرة ، كنت .

والى جانبي ، على زجاج النافذة الملاصقة لمقعدي لم تكن برك العيون

الحمر الدامية الغاضبة تنفتح بضراوة ...

لم تكن هناك ...

كانت هناك سماء زرقاء وصافية تمتد بلا نهاية ... مضيئة وزرقاء

كالدانوب الازرق العتيق ...

الساعة ١٢،٢٠ يوم ١٤ آب ١٩٧٢ .

أرملة الفرح

هذه المرة كان الحلم مروعاً .

ام تراه لم يكن حلماً ؟

لم اعد ادري .

كل ما ادريه هو انني استيقظت للتو من نومي ، ارتجف كأغصان شجرة
احتلتها الجراد للتو .. وانتحب باسمك يا هاني .. مذعورة .

كجريح عاجز عن الحركة يأكل النمل جراحه ... وانتحب باسمك
يا هاني ...

وفراشي الشاسع احسه مربعاً وبارداً مثل حقل انتشرت فيه جثث القتلى
بعد ان كان مسرحاً لمعركة ، والقمر الصقيعي البياض يغمر الاجساد المطعونة
بلون شبحي رمادي ... كلوني وانا مرمية هكذا ارتعد والفجر الرمادي
يحتل العالم ، وانتحب باسمك يا هاني ...

ولكن ، لم انا خائفة هكذا ؟ لم أنا حزينة هكذا ؟

كان الامر حلماً . مجرد حلم ... ككل احلامي في الاربعين يوماً الماضية .
لا يمكن لما حدث ان يكون حقيقة ...

ولكن ما الحقيقة ؟ ... ما الحلم ؟ ... لم اعد ادري ... كل ما ادريه
هو انني كنت فتاة لا تحلم حتى عرفتك ...

عشت ثلاثين عاماً لم احلم خلالها مرة واحدة .

كنت اقرأ عن الاحلام . عن تفسير الاحلام . كنت اسمع الناس يتحدثون
عن احلامهم . يذاعون بها . يتشامون . لكنني لم احلم . مرة واحدة .
طوال عمري لا اذكر انني حلمت مرة واحدة .

وربما كان عجزني عن الحلم هو ما دفع بي الى قراءة كل ما له علاقة
بالاحلام ... وصرت اعرف التفسيرات الفرويدية للاحلام ، والبرغسونية ،
والبلوشية الماركسية ، بل انني قرأت كل ما كتبه شوبنهاور وأرتيج وتيسيه
وشرنر وستيفنسون عن الاحلام ... ولكن ما جدوى ذلك كله وانا لا احلم ؟
ما جدوى ان انام كل ليلة في فراش تغطيه كتب تفسير الاحلام والنظريات
عن سبب الحلم ومدلوله وفيزيولوجيته وأنا لا احلم ؟ لقد غيرت (ماركة)
فراشي مرات عديدة ، وارتفاع وسادتي ... وظللت لا احلم .

اجل . كنت لا احلم بالمعنى الذي اسمع الناس يتحدثون به عن الحلم ...
ومع ذلك كانت حياتي كلها مثل حلم واحد طويل صامت وممل ومكرر ...
مثل مسيرة قطار على سكة حددت له سلفاً وكل ما عليه هو ان يطيع الدرب
المرسومة له . كان كل ما فيها يبلو شاحباً ومهزوزاً وغير حقيقي . وكان
يخيل الي انني اعيش حياتي كلها للمرة الثانية وان كل ما يدور من اقوال
وافعال سبق له ان حدث لي من قبل . قصرنا الكبير ... زوارنا القادمون
دوماً في سيارات فخمة ينحني سائقوها وهم يفتحون لهم الباب ...

صديقات امي في شعورهن المستعارة يلعبن البريدج ويذهبن الى عروض
الازياء . الاواني الفضية التي تملأ خزائن كالتواييت تلمع كل شهر وتعاد الى
موضعها ... الثروة ... والشاي ... ودانتيل طبق (الجاهتوه) ... كل شيء
كان يبدو كحلم ... وانا كنت منومة منذ ولدت ، والا لما استطعت ان
ارضى بممارسة دوري المرسوم لي ، وللمرة الثانية منذ طفولتي وأنا افعل
كل ما هو مفروض ان افعله دونما نقاش كالمنومة ... ويوم تخرجت من
الجامعة بنجاح ، تم تعليق شهادتي على الجدار الرخامي الى جانب الصور
الزيتية لاجدادني الميتين وبقية أفراد الاسرة ووضعت شهادتي في اطار مماثل ...
وظللت لا احلم .. وظللت مستسلمة لكل ما حولي ، دوماً اقول ما يفترض
ان اقله ، وافعل ما ينتظر مني ان افعله ، ودوماً اشعر ان كل ذلك انما

يحدث للمرة الثانية . وكل من حولي راض عني ، اسمع تصفيقاً مبهم المصدر
كيفما تحركت ... تصفيق رضى عالمي الصغير ... وظللت لا احلم ...
ولم يكن هناك ما يهزني حقاً . ما يسعدني بعنف او يتعسف بعنف .
يوم قبل لي ان امي مريضة بالسرطان سافرت معها الى لندن ، وكنت ارافقها
كل يومين الى ذلك المستشفى الكبير لحضور جلسات الكي بالاشعة (او شيء
آخر لا ادريه) ، ولم اكن حزينة ولا فرحة ولكنني كنت ارافقها بالتاكسي
من الفندق الى المستشفى ولم يحدث مرة ان غادرت طريق سير التاكسي
لاكتشف العالم حولي ... كان كل ما حولي منظماً - او يبدو كذلك - وقد
اتخذت المكان المعد لي فيه دونما صراع . ورضيت بإطاري بلا مناقشة ...
ولكنني لم اكن احلم ...

حتى التقيت بك يا هاني . (اول مرة رأيتك لم يكن فيك ما يميزك
عن سواك ، ولا بد لي من الاعتراف بذلك . كنت مجرد طبيب ناجح
آخر من عشرات الاطباء الذين تعاقبوا على علاج امي - المصابة بالسرطان -
والتي لا علاج لها ... بلى ... كان فيك ما شديني منذ اللحظة الاولى ...
انها تلك النظرة في عينيك ... نظرة يمتزج فيها الجنون بالدمع .. نظرة
نفاذة مليئة بالفضول وبالحيرة .. بالاستجداء وبالاكتفاء ... وشعرك ايضاً ..
كان مجنوناً مبعثراً مثل شعر فنان لا طبيب .. ونظرتك أيضاً كانت نظرة
فنان يحمل الازميل لا نظرة طبيب يحمل المشروط . قلت ذلك لاخوتي سلمان
الذي حدثني عنك بحماسة . قال انك فعلاً كما حدثت . وانك طبيب
غريب الاطوار ، فانت تحاول انقاذ مرضاك من الموت بمضعلك ، ومتى
فشلت ، ومات احد مرضاك ، قضيت الليالي التالية لموته وانت تحت
تمثالاً له وبكياه ولا يهدأ حزنك وبكاؤك حتى تجسده في حجر يكاد يتحرك
وينطق ... ومرضاك الذين كانوا يتلاشون بين يديك في غرفة العمليات ،
كنت عبثاً تعيد اليهم الحياة عبر الصخور في الحقل المحيط بدارك ...
وخبرني اخي ايضاً ان ذلك الحقل مكان عجيب ... وكل الذين خرجت

جنازاتهم من مستشفاك ، بعثوا في تماثيل في حقلك ، وانك بارع في الطب براعتك في النحت ... وان المرضى يلاحقونك رغم غرابة اطوارك ... وان اول ما تشرطه على كل مريض هو السماح لك بأخذ قناع جسي عن وجهه - في حال وفاته - كي تم صب التمثال ، ثم تسكب فيه - من الذاكرة - تعبيراً ما ، كان يدهش اهل الفقيد مدى شبهه بالمرحوم . وكنت ترفض السماح بكلمة (المرحوم) . كنت تعتقد ان كل مريض متوف تسكبه في تمثال يكف بطريقة ما عن ان يكون ميتاً) ... ولم يدهشني ان يدافع اخي بجزارة عنك هكذا ... هو ايضاً كان الموت يثير جنونه ...

وسرطان الثدي الذي أصيبت به امي منذ اعوام طويلة غير مجرى حياته . اتجه الى دراسة الطب . واختص بحقل السرطان ... وهو مقيم منذ اعوام في احد مستشفيات الغرب يتابع حربه ضد الموت في المختبرات .. وكان فراق شقيقي يتعس امي الثرية التي تستطيع عادة ان تشتري كل ما تشاء وتسمره في غرفتها ... شيء واحد لم تستطع امي شراؤه . انه ابني الشاعر ... تزوج منها وعاش معها شهراً حملت خلاله بأخي ثم هرب منها عشرة أعوام ... ولما عاد ، عاش معها اسبوعاً ثم هرب منها الى الابد متحرراً ... ومع ذلك لما جئت انا ، اسمتني امي نينار ، الاسم الذي كان يريد لي ... هذه المرأة الرخامية التي استطاعت ان تكون رجل اعمال ناجحاً ، هذه المرأة الصلبة التي ضاعفت ثروتها عشرات المرات لا ريب وانها ضعفت ذات ليلة حين ذهب ابني .. بكت بين اغطينها الحريرية ووسائلها الريشية ، ولا ريب انها حلمت به وجمدت في حلقتها شهقات كوابيس القراق والا لما اسمتني نينار تنفيذاً لمشيتته .. ولكنني منذ عرفتها لم المح في وجهها اي اثر للدمعة او لكابوس او حلم ... وقد جهدت هي لكي اكبر على صورتها ومثالها ... وجهدت لكي تمحو من اعصابي وتمسح من دماغي كل جنون يمكن ان اكون قد ورثته عن ابني الشاعر ... وتبدل الدماء العجرية في عروقي الى دم

ازرق يلبق بسيدة مجتمع مقبلة لا تحلم وتتمتع بكل مواهب الآلات الحاسبة ...
وتصدر موائد لجان حفلات انتخاب ملكات الجمال . وكل ذلك كان ممكناً
لو لم تطل يا هاني في حياتنا ... ونجىء لتخدر امي التي لا شفاء لها ، واذا
بك ترعى كل جراثيم الرفض التي خلفها ابي الشاعر الثائر في مسامي ... واذا
بها تنمو... وها انا امرأة تحلم وتؤرقها الكوابيس... اواه يا هاني... كيف
استطعت ان تحولني من شيء هاديء وهامد ، ومستقر كاستسلام مومياء
لنابوتها ، الى شريان مقطوع ينبض نرفه على هامش صفحة عمرك ..؟

باب غرفتي يقرع . صوت خادمتي « تفاحة » الالف يناديني . تدخل .
ترفع الستائر . يهجم الضوء على وجهي دبائيس في العيون ... انها التاسعة
اذن ... وها هي توقظني كما طلبت اليها ... لم اكن ادري ان ذلك الكابوس
المروع سيوقظني وانني سأعجز بعهده عن العودة الى النوم ...
شعرت بالرغبة في الحديث عن كابوسي الى شخص ما ... الى « تفاحة »
مثلاً وان انتحب قليلاً ... ولكنني حين فتحت فمي سمعتني آمرها ان
تعد حمامي وبلهجة قاسية ...

ها أنا في ثيابي السود مثل ارملة الفرح ... اليوم ينقضي اربعون يوماً
على موت امي ، ولا أدري لماذا يفترض ان تقام طقوس خاصة بهذه المناسبة .
لماذا لا تقام هذه الطقوس في اليوم التاسع والثلاثين مثلاً او الواحد والاربعين ؟
لماذا في الاربعين بالذات ؟ وهل لذلك اية علاقة حقيقية بها ؟... هل هو مثلاً
عيد هجوم النمل والدود على مجنثها ؟ ام ماذا ؟... ثم ما علاقة ذلك بأكوام
الطعام التي بدأت تصلنا من احد المطاعم الكبيرة ؟.. وهل توقت ثروات
العائلة وعجائزها موعد التهام وجبتهن الفاخرة هذه مع موعد التهام الدود
والنمل لحنه امي ؟

لا ادري ... وقبل ان اعرفك يا هاني لم تخطر بياي هذه الاسئلة ...
لنقل انني لم احبك ، ولكنك على اية حال زرعت اشارات الاستفهام في
حياتي ... وها انا ارى كل شيء من جديد ... من جديد ... وحتى خالتي

نعمة الارملة التي كنت اظن انني احبها ، انأملها الآن وهي تدخل القصر
يرافقها مقريء اعلى وتذكرني لسبب اجهله بالسمسار الاعرج الذي يؤجر
املاك امي ... اكرهها ، واكره منظر المقرئين العميان الذين لا اراهم الا
في المآتم . واحسهم في ثيابهم السود وعيونهم المفقوءة مثل الغربان التي تنهش
جثث الموتى في شوارع مدينة الطاعون .
ها قد أعد كل شيء .

الاواني الفضية نبشت من ثوابيتها للمناسبة ، وغرف القصر كلها ربت
والرياش الملونة انتزعت واخفيت . وها هو المقريء بصوته النشاز مثل
اسطوانة مهترئة ، وها انا ارملة القرح وسيدة القصر الجديدة اخرج الى صالة
الاستقبال الكبيرة واجلس متصدرة المكان ... تم اعداد ديكور المكان - بما
فيه أنا - وبقي ان يأتي بقية افراد التمثيلية المهزلة ... لا رب في اني ابدو
جامدة وباردة كالجدران الرخامية التي يغطيها بعض السجاد الفاخر ، ونقوش
السقف الملونة ، وصور اجدادي المتناثرة على الجدران . وبعض الحكم العربية
المحفورة في خشب الابواب الثمين ، اذ ان خالتي تقول لي بكثير من التأنيب :
ابك قليلاً قبل ان يحضر المعزون ! ..

لماذا ابكي ؟ اشعر بأن الموت متغلغل في عروق هذا البيت منذ كان .
لسبب اجهله ، الموت يجلل كل شيء . ولكنني لا استطيع ان ابكي . ما ازال
ساقطة تحت سطوة الكابوس ... كان كل ما في حياتي منظماً ، ولم اكن
اذري ان كل تلك المؤسسة الهائلة التخطيط ليست سوى ابنية من الملح اكتسحها
حلم .. حلم دام اربعين يوماً ثم تحول الى كابوس .. وغداً ربما يذهب الحلم ...
ويذهب الكابوس ... ولكن شيئاً لم يبق كما كان ... مدينة الملح والوهم
سقطت نهائياً ، بعد ان اكتسحها حلم يفوقها كثافة وحدة ... وغداً ... غداً
امتلك وحدي هذا القصر وقصور امي كلها ما دام اخي ضائعاً بين مخنبرات
العالم يصارع الموت كأبي دونكيشوت عبقرى آخر ، سيفه أنابيب الاختبار
وعشرات الحيوانات الصغيرة السجينة .

ولكن ، هل انا خير منه ؟ ألم اهرب من الموت الى دهايز الحلم ؟
(دهمني الحلم الاول منذ اربعين يوماً ليلة موت امي ... ليلة ٢٥
آب . حلمت بانني اسمع صوت انين ينبعث من غرفتها الملاصقة لغرفتي .
ركضت اليها . كان في وجهها شيء جديد يذكر بصفارات السفن الراحلة
في الموانئ المعتمة ... همست : طبيب... هاني ... اتصلي بهاني .
وهتفت الى هاني ، وردت زوجته نصف النائمة نصف الغاضبة :
هاني في «عاليه» .. لا تلفون هناك . لا يجب ان يزعه احد هناك .
وركضت الى امي لأسألها ماذا الفعل . وجدتها لا تجيب . ووعيت انها
لن تجيب الى الابد ، ومع ذلك لا ادري لماذا قررت ان اذهب الى هاني ...
لاجل امي ام لأجلي ؟

واستمر الحلم بوضوح مذهل . كنت في قميص نومي الابيض الطويل .
ركضت كما انا الى حديقة قصرنا لاوقظ سائقنا الذي ينام في كوخ صغير ..
وصلت الى باب الكوخ . قبل ان اصرخ منادية باسم السائق « ابو عبدو »
شاهدت لوحة جعلت الدماء تقفز الى حلقي وتخفني . شاهدت شبحين
غارقين في عناق مذهل . اقتربت منهما بكل هدوء وصمت . كان ضوء
القمر يشتعل فوق ذرى الاشجار وترنمي حزم منه فوق الحشائش امام
كوخ « ابو عبدو » وتضيء الشعر الطويل المفروش على الارض لامرأة
ترتعش كلهب شمعة ... بينما ارتنم رجل فوقها بجسده الهائل كشجرة
مباركة ، وصارا مثل موجتين اتحدتا ، يوديان رقصة شفافة كالاساطير
مجنونة كالآل... ظلمت واقفة اتأملهما يذهول... صارا موجة واحدة تروح
وتجيء بشراسة مثل صرخة متوحدة تفتح في صخر الواقع نفقاً الى عوالم
ازلية تلتقي فيها الحقيقة والحلم ... ولم يشعرا بي . راحا في شبه اغماءة
هناءة . ارتنما على الحشيش عاريين تماماً فوق ظهريهما ، وبدوا والقمر
يغسلهما مثل لوحة تمثل آدم وحواء ليلة « الخطيئة » ... وكان وجه تلك
المرأة المتفجرة عطاء وغبطة هو وجه « تفاحة » خادمتي الصغيرة الخجول .

وكان هذا الرجل المستريح اللاهث - كمن اغمد للتو رايته فوق جبال الموت - هو « ابو عبدو » سائقي الوفي ...

تأملتهما وتأملت حديقة قصري وكأننا أراها للمرة الاولى ... لقد شاهدت حديقتي مضادة بالمصاييح الملونة في الحفلات الخيرية .. في حفلات عرض الازياء ... في كل انواع المناسبات الاجتماعية حتى حفلات الكشاف وجمعية الرفق بالحيوان ... ولكنني لم اشاهدها قط كما هي الآن ، تفوح منها رائحة التراب والحياة ، وموسيقى داخلية كأنما هي صوت البذرة وهي تنمو تحت التراب وتشقه لتخرج ... وها هي « تفاحة » و « أبو عبدو » لا يزيغان لا الارض ولا واقعهما ... وها انا اقف مذهولة امامهما ، انوء تحت ثلاثين عاماً من وهم الحياة ... تنهال فوق رأسي بطاقات عشرات الحفلات التي رافقت امي اليها والتي تظهر صورها في الصحف والمجلات في اليوم التالي ويسارع ابو عبدو الى شرائها تلبية لاولامر امي ... تلف عنقي مجوهراتي التي طالما ارتديتها مثل تمثال منومة بينما امي تحدث صديقاتها عن ثمنها واسم الدكان الباريسي اللبّي ابتاعتها منه ... ينزلق في عيني شريط لرجال الدين المترددين دوماً الى بيتشسا ، الباسطين علينا رضاهم وبركتهم ... والمزار الذي اعتدت ان امر به مع امي لنصلي بين النساء الباقيات وطالبات الشفعة ، والذي دفعت امي كل نفقات ترميمه وجامعه والرجال الهامين الذين يزوروننا ... والصفقات التي برعت امي في ترتيبها واولئك الرجال الملفوفين بربطات عنق حريرية المجعدي الوجوه الذين يتلعون الهرمونات والاقراص قبل الطعام وبعد الطعام ويغمرونني بنظرات الشهوة وهم يتجشأون ، ويمسحون شعري - مدعين العواطف الابوية - بأيد لزجة مرتجفة باردة لها ملمس الضفادع ... ثلاثون عاماً اسمعها تنكسر في رأسي كما لو تحطم فوقه كل الكريستال الموجود في ثريات قصرنا ...

ها هي « تفاحة » تعود الى صدر « ابو عبدو » .. ويستمر الحلم ...

أحلم بأنني اركض هاربة منهما ... اركض الى سيارتي ... اقودها مجنونة الى عاليه ... الى حيث حقل هاني الذي حدثني اخي عنه ... وكنت قد نسبت تماماً لماذا انا ذاهبة اليه ... ربع ساعة تفصل بين « بيروت » و « عاليه » الموشومة في حضن الجبل المشرف على بيروت والبحر ، لكنني احسست وانا اقود سيارتي المكشوفة اليها بانني اقود صاروخاً الى كوكب آخر ... كانت اول مرة ارى فيها الليل العظيم يحكم العالم ، ليل « تفاحة » و « ابو عبدو » . كانت اول مرة اخرج فيها الى ليل الجبال وحدي ، دون ان اكون ذاهبة الى حفلة او خارجة من مأتم ...

اجل ! كان الليل العظيم يحكم الجبال والوديان ، والقمر يضيء كما لم يضيء الا في الاساطير والاحلام ... يضيء كهوفاً ومغاور على جانبي الطريق ، اراها بسرعة التماع الشهب وهي تسقط ، ويخيل الي ان في كل مغارة يدور شيء حار وممتع وسري ومليء بالحياة لا تعرفه علاقات القصور المغلفة بالقفازات .

واحسست بان الدرب شفت حتى استحالت الى حزمة ضياء تركض تحت عجلات سيارتي ، وان سيارتي مجرد نسمة طائرة ... وان شعري وجسدي امتداد للريح والليل ، وانني اذ اجيء اليك اتحد في طريقي بالتراب والصخور والعناصر ... كانت صورة « تفاحة » و « أبو عبدو » تلاحقني في المنعطفات ، وشهقاتها هي صوت محرك سيارتي .
اخيراً وصلت .

الهدوء يغمر حقلك كأول ليلة بعد انحسار طوفان نوح .
والحلم يستمر رائعاً ...

باب الحقل مفتوح . ادخل .

ادور بين تماثيلك واكاد اصاب بالخوف ...

اتأملها . في وجوها تنجسد لحظة توهج انسانية مذهلة ، لا نراها الا في وجوه المحتضرين لحظة تعانق الحياة والموت ، وفي وجوه الاطفال لحظة

الولادة ، وعند اول شهقة تنفس يعثون فيها من الهواء الارضي ...
خيل الي ان تمالكك تقول شيئاً ما ... تكاد تركض خلفي ...
اركض كالمجنونة بينها وانا ديك ... ها انت ...
وقفت امامي وفي عينيك نظرة كلها ثقة ... كأنك كنت تعرف انني
سأجيء اليك يوماً ما ..

اردت ان اقول لك شيئاً عن امي ثم نسيت . يدك داخل شعري .
يدك حول عنقي . يدك تأكدان من انني جئت بك بكل جسدي ...
وتفاهمنا بصمت تام لا نراه الا في الاحلام . امسكت بيدي فسرت
معك . القمر يرمي ضيائه الشبحي الفاجر وكل شيء صامت ، حتى
التصفيق الذي اسمعه عادة كيفما تحركت صامت ... كان الكون كله
قد حبس انفاسه وكف عن الثرثرة اللامجدية ...
دخلنا كروحاً صغيراً مؤلفاً من غرفة واحدة .

لم افاجأ بما فيها كأنني كنت اعرف ذلك منذ عصور .
كانت صورة عن غرفة العمليات الطبية ، او عيادة طبيب نسائي .
يتوسطها سرير (الحب) ، لكنه السرير الحديدي الخاص بالعمليات ! ..
مغطى بشرشف ابيض يذكر بالكفن .

افهم وحدي ان علي ان اتمدد فوقه . تناولني المنزر الابيض الذي
يرتديه المرضى قبل ان تجري العمليات لهم . استبدل قميص نومي بمئزر
العمليات الخشن .

افهم ايضاً ان علي ان اتمدد فوق السرير . رائعة هي الاحلام ...
كل ما فيها يدور بصمت ، كل شيء واضح وبديهي وجسر التفاهم
مدود بين انسانين دون حاجة الى الحوار .

اراك ترتدي القميص الابيض الخاص بالاطباء ، وتغطي وجهك
بالقناع الابيض ويديك بالقفازات المطاطية وتقرب مني ويبدو مشروط
العمليات الحاد ...

تكشف عني ردائي عن موضع القلب ، ونحوم بالسكين هناك .
لا اخاف .

افهمك رغم الصمت . بل افهمك عبر الصمت كأننا اكتشفنا لغة
تخفنا وحدنا .

ها هما عيناك مخيفتان في ضوء القمر الساقط عبر الكوة ... عيناك
جمرتان من الغضب الهائل ... غضب على قوى لا تملك لها دفعا ... كأنك
لا تراني يا حبيبي .. كأنني مجرد ساحة معركة بينك وبين قوى غيبية
تصارعها ...

ولكن لا مشرتك ولا معطفك الابيض ولا ازميلك تملك شيئا لك ...
اقرب ... اخلع ذلك كله وتعال نبحث عن حل آخر عتيق عتق الانسان ..
اجل ! هكذا ... تعال اليّ عارياً من كل شيء ، ومن البارحة والغد ،
مغسول الذاكرة والاحقاد ، ولنعب معاً عتبة الفواجس والكوابيس ...
لماذا ترتجف يا حبيبي مثل عصفور طار الف عام وسط الثلوج والجليد ؟
... تعال اليّ ... اخلع قفازيك ... أحسك وانت ترتديها مثل مجرم
يتحفر للسرقة ... ليس هنالك ما تسرقه ، انني امنحك مجاهلي ورعبي
وخدري ... ازرع الاحلام في موتي الطويل الممتد على ثلاثين عاماً من
تصفيق الناس ... أجل هكذا ... اغرس راياتك ... اجل هكذا ...
فلتتجمع الحياة في محرق اللحظة ، ولنعيش الف عام في ثانية من الكثافة
المذهلة ... كم هو رائع ... اوه ... كم ذلك رائع !

وقبل ان امضي وينتهي الحلم ، اعطيني مفتاحاً صغيراً وقلت لي إنه
مفتاح باب الكوخ ... وطلبت مني ان احضره ثانية ...

واستيقظت ليلتها من نومي وانا ارتعد ... وذهلت حرارة الحلم الذي
ما يزال يسري في عروقي ... الحلم ؟ ... لا ادري رغم انني وجدت
في حلقة مفاتيحي الكثيرة المفاتيح ، مفتاحاً صغيراً كالذي شاهدته
في الحلم الا انني لم اكن استطع الجزم اين ومتى امتلكته ... انه ولا ريب

واحد من مفاتيح الغرف الكثيرة المقفلة في هذا القصر ربما لم انتبه اليه من قبل ...

كانت هنالك ايد تقرع بابي ... صراخ ... خرجت . قالوا انهم وجدوا امي ميتة . سارعت اليها ، وحين لمستها وجدتها باردة باردة وقد سرت فيها الزرقة . تأكدت من انها ماتت قبل ساعات بينما كنت احلم) . وحينما جثت بعد ان علمت بالنبا ، لم تقل لي شيئاً يؤكد ان ذلك الحلم المذهل كان حقيقة ... جثت لتقول لي بكل بساطة انك ستبدأ العمل في تمثال امي ... ولكنني حينما شاهدتك احسستك كحد محراث يشق تربة ايامي التي هجرها المطر والاطفال والعصافير ... يحفر دربه تحت جلد عمري المسكون بالموت والتصفيق ...

وحينما صافحتني ، احسست عظامي المتعبة الحزينة كرفش حفار قبور عجوز عادت تلتهب ...

وحينما سألتك عن زوجتك بدت في عينيك دهشة حقيقة كأنك لم تسمع من قبل بأنك متزوج ! ...

وانقضى النهار كما هو مفروض ان ينقضي . بكاء وعويل وعجائز كالغربان السود ومقرىء مفقوء العين وسيدات جمعيات وغيرها من الفظاعات . ولأول مرة بدا لي كل شيء بلا معنى . ولأول مرة شعرت بأن الدور المرسوم لي يحبس انفاسي ، وبأن الخيوط التي كانت تحركني انا الدمية بدأت تنقطع ... (وانتظرت الليل بفارغ الصبر كي احلم من جديد انا المرأة التي لا تحلم ... وكما دقي حاولت ان اصلي قبل النوم لكنني عجزت عن الصلاة . منذ عرفت الحلم فقدت قدرتي على الصلاة ... ولم اعد اجروء على الدخول الى الزار رغم انني حاولت ذلك مرات عديدة .

اخيراً النوم العظيم ... وعشت الحلم نفسه ... الكوخ نفسه ... الطقوس نفسها ... ثوب الطبيب ... فراش العمليات ... اتعري استعداداً للعملية ... وكما في حلم الليلة السابقة ، نتابع الزحف فوق تل اللذة حتى الوصول

الى قمته ...

وفي الصباح استيقظ سعيدة) ...

كان رائعاً ان احلم ... ان احلم بعد ان قضيت ثلاثين عاماً اسمع عن الاحلام وعن تفسيرها واقرأ عنها ولا احلم ... وكررت محاولة الدخول الى المزار والصلاة تكفيراً عن حلمي ، لكنني كنت احس ان العتبة صارت مكهربة تحت اقدامي .

وتكرر الحلم كل ليلة ... ليلة بعد ليلة بعد ليلة ...

(كنت أستيقظ اثر كل حلم مبهورة سعيدة ... واذكر اني مرة هرولت الى سيارتي فور يقظتي ، وتحسست محركها وذهلت لانه حار ثم قررت ان ذلك يعود الى شمس الصيف المحرقة التي يظل اثرها في المحركات طوال الليل ، ورغم ان بقية سيارتنا كانت باردة لكنني اقتنعت ان سيارتي لسبب ما تحافظ على الحرارة دون غيرها .

كنت سعيدة بالحلم . كان وحده يكفيني قحط ايامي ... ماذا حدث ؟ ولماذا صار الحلم كابوساً ؟)

خالتي نعمة تنكرني وتهمس : ما بك تصافحين المعزين كالمنومة ؟ هذه زوجة رئيس الوزراء السابق (...) وربما اللاحق ، يجب ان تودعها الى الباب ...

انهض لأودعها بحماس لانني اشعر بحاجة لتحريك ساقى ... اودعها . تلحق بي خالتي وهي تحمل صحف اليوم وتقول لي غاضبة : انظري . كل الصحف نشرت عن (اربعين) امك في اطار اسود خاص الا جريدة (هاهاهاهاه) نشرت الخبر في عمود الوفيات العادي الذي يحمل اخبار موت كل الناس . عيب . يجب ان تعاتبهم .

امسك بالصحيفة واتظاهر بالاهتمام كي تكف خالتي عن محاضرتها . تحيي « تفاحة » ووجهها متورد للمرة الاولى تطلب مني شيئاً بكل جرأة : ارجوك يا سيدتي ... اقرأي لي اسماء القتلى في ضيعتي فقد يكون أبي بينهم .

انا من « عينا الشعب » واليهود يضربوننا باستمرار ...

تصرخ بها خالتي : يا قليلة الادب . الست مشغولة

بعد قليل اتسلل الى المطبخ والجريدة معي .

تقول تفاحة انها من قرية « عينا الشعب » في الجنوب على الحدود

الملاصقة لاسرائيل، وانها دوماً تسرق السمع في مذباع غرقتي فيما هي ترتبها

لانها تخاف من اليهود على اهلها هناك وتريد الاطمئنان على اخبارهم . وانها

سمعت اليوم ان هجوماً وقع وقتل كثيرين سقطوا ...

امسكت بالجريدة لاقرا لها الخبر ... للمرة الاولى توهجت الحروف

في عيني ... ربما للمرة الاولى اقرأ شيئاً غير اخباري في صفحات المجتمع .

ضبطتني خالتي في ذلك الوضع الحميم مع الخادمة .

قالت لي انه لا يجوز رفع الكلفة مع تلك الطبقة من البشر .

(تذكرت تفاحة وابو عبدو ليلة الخديفة . تخيلت أولادهما يملأون

هذا القصر ويحتلون غرفه هم وعشيرتهم ويرون من النوافذ بالأواني

الفضية اللامعية وباروكات شعر امي وثيابي ويلعبون (الدحل) بمجوهراتي

وكريستال الثريات ويغنون ويزرعون الأرض ويلونون الجدران وتفوح

من القصر المبت الموسيقى والازهار) ...

ولم اجرؤ على ان اقول كلمة واحدة . في عيني خالتي — كما في عيني

امي — كما في عيون بقية تلك العصابة ، عصابة « مافيا البورجوازية » ما يدفع

ني الى الاستسلام .. ربما ادمنت عجزتي منذ طفولتي ... ولم يعد بوسعي ان

اتمرد الا عبر الحلم ... ها انا اعود الى موضعي بين المعزيات . متى يعود

الليل لاحلم ؟

كابوس البارحة ما يزال جاثماً فوق صدري ... كم يبدو لي حقيقياً ...

كم هو مرعب .. لو جاء هاني لحدثه عن احلامي معه وسألته هل يحلم

معي ... ومثلي : لكنني لم أره قط خلال النهار الا يوم موت أمي . وها انا

اتمسك بحلقة مفاتيحي . واتحسس المفتاح الذي حملت بأنه انتزعه مني في

كابوس الليلة ولا اجده ! المفتاح الذي اجهل مصلره وكيف ومتى انضم الى حلقة مفاتيحي الضخمة ، وقد جربته في كل غرف هذا القصر ولم يناسب اياً منها ، وفيه ما يذكرني بمصباح علاء الدين في الاسطورة ... وتملكني عادة التمسك بهذا المفتاح ، وباستمرار كنت اتحسه ويحلوني ان اسميه مفتاح الليل السري ، مفتاح كوخ الحياة ، حيث طاولة العمليات لا تفشل : وحيث البحر الى الخلود ، جسدان مجدولان في الليل ممدودان بين عالمنا النافه حيث التصفيق أو التوبيخ وذلك العالم السري حيث الخلود رعدة لا تنتهي ، وحالة استمرار اهتزازية .. الاستقرار فيها هو الحركة ...

لقد اختفى المفتاح اثر كابوس البارحة ... يا لها من صدفة غريبة ...
ويا له من كابوس مروع ...

(ليلة البارحة ، كما في كل ليلة عجزت عن الصلاة . وكما في كل ليلة . الحلم ذاته ... نهضت بقميص النوم ذاته الى سيارتي . ادرت محركها . اتجهت الى عاليه . تابعت طريقي اليه ... لم اجده في الحديقة ... فتحت الكوخ بمفتاحي الصغير ، مفتاح الليل السري ...
وكما في كل ليلة ، تعريت ، ثم ارتديت مئزر العمليات وتمددت فوق السرير الحديدي وانتظرت ان يدخل ويرتدي ثياب الطبيب لنمارس الطقوس نفسها ..

وهنا تبدل الحلم للمرة الاولى وصار كابوساً ...

فقد دخل فجأة وبدا عليه انه دهش لرؤيتي . بخشونة طلب مني مفتاح الكوخ - مفتاح الليل السري ، فاستخرجته من حلقة مفاتيحي واعطيته له . اخذه وظل واقفاً امامي يتأملني وفي عينيه بريق مجنون والعرق يقطر منه ، ثم امسك بالمشروط واقترب مني وللمرة الاولى شعرت بالخوف .. وفجأة انقض علي وغرسه في موضع القلب تماماً لكنني كنت رميت بنفسني عن السرير الى الارض وسمعت صوت السكين وهي تمزق الغطاء وتغوص في السرير حتى حديده ...

وهجم علي غاضباً وهو يصرخ : ايها الغبية ... الا تفهمين ؟
واقرب مني وشدني من يدي ، وخرج بي الى حقله ، وركض وهو
يشدني وانا أسقط على الارض وهو يسحطني ولا يبدو عليه انه يلحظ كم
اتالم حتى وصلنا الى تمال استطعت ان اتبين في الضوء الشاحب انه تمثال
امرأة عارية تشبهني .

صرخ بي : انظري ماذا صنعت من اجلك .. دعيني انقذك ... انا
المخلص ... انا المخلص ...

بصوت وحشي مجروح كان يلهث وهو يصرخ « انا المخلص » بينما
اصابعه تضغط على عنقي وانا اتلاشي ذعراً واختناقاً وعرفت انه يقتلني
وسأموت .

صحت من اغماوتي ووجدت نفسي فوق السرير في الكوخ اياه
وكان هو جائياً على الارض ينتحب ... لم اتحرك ... كان يبكي بمرارة
ويخاطب (جنّي) قائلاً : المسرحية التي مارسناها فوق هذا الفراش
كانت بلا جدوى ... طريقي في الخلود هي الاصح .. الموت .. الموت ..
وينفجر صارخاً هائجاً من جديد ... الموت ... لقد اغتلت الموت فيك ...
يجب ان اغتال الموت في كل شيء .. وأسمعه يركض الى الخارج ...
وأسمع أصوات احجار تتحطم تحت مطارق ... وانهض من موضعي
فوق الفراش ... واره في حقله يحمل مطرقة ويدور بها مسعوراً يدمر
تماثيله كلها وهو يصرخ صيحات وحشية كحيوان علق في فخ لا يجد
منه فكاكاً ... كان مستغرقاً في عمله ، ولم يلحظ اني هربت منه الى سيارتي ...
وانطلقت بها ارتجف ، وفي غمرة رعي حلمت بانني صدمت جانبها
الايمن بمدخل حقله وان الضوء الايمن الامامي انكسر ...
واستيقظت من الكابوس مذعورة ...) .

وما ازال مذعورة ...

انحس « الايشارب » الاسود الذي لفته حول عنقي بكثير من الغم ..

يا لفظاعة الكابوس !

ها قد نهضت قافلة غريبان الموت الى غرفة الطعام ... يأكلن بشراسة ...
سيدة تصرخ . يقولون ان شوكة علفت في حلقها من السمكة . يا لشراھتن .
تصرخ خالتي : اطلبي الدكتور هاني ...

اتمنى ان اسمع صوته ... لن اقول له شيئاً عن الشوكة في حلق هذه
العجوز الشرهة ... سأسأله عن الشوكسة في لحم احلامنا ... عن كابوس
البارحة ... وعن احلامي قبلها ... وسأطلب منه ان يداويني ..
زوجته ترد وتقول لي بكل شماعة : هاني مصاب بانھيار عصبي .
تستطيعين زيارته في مستشفى المجانين اذا احببت !
وتغلق سماعة الهاتف في وجهي !

اركض مجنونة في القصر ، وانا اتذكر تفاصيل كابوس البارحة ...
اجل ! حلمت بأنه اخذ مني مفتاح الكوخ ... مفتاح الليل السري .. من
جديد أتأمل حلقة مفاتيحي ... اختفى منها ذلك المفتاح الذي لم اعرف كيف
جاء وكيف راح ... اكشف ثوبي الاسود الطويل وأرى الكدمات تغطي
ساقى . انتزع الاشارب الاسود عن عنقي واجد كدمات وردية مزرقة
على جانبيه ...

اركض الى الكاراج بحثاً عن سيارتي ... اسمع حواراً يدور بين « تفاحة »
و « ابو عبدو » ...

تقول تفاحة ضاحكة : يا ليت « الست » تزوج حبيبها الذي تخرج كل
ليلة للقاءه بالسر كما سنزوج انا وانت ... لماذا (الاكابر) قصصهم معقدة
وافعالهم عجيبة ؟ ...

ويرد « ابو عبدو » مشغول البال : البارحة عادت وهي تترنح ...
وسيارتها مضروية .. انظري .. ضوء السيارة الامامي اليمين مكسور ...
اتركينا من سيرتهم ... اناس مساكين ...
ادخل الى الكاراج واتظاهر بأنني لا ارى عناقهما ... اركب سيارتي ...

اركض بها الى عاليه وادرك ان قلبي ترتجف فوق « دعة » البانزين ...
اصل الى الحقل ...
للمرة الاولى ارى المكان في ضوء الشمس وبلا احلام ، رماح الشمس
تلتمع شرسة وحادة فوق حطام التماثيل ...
واشعر بأنني ادخل قرية بعد مجزرة قتل كل اهلها فيها وها هم متناثرون
حولي ... وانا وحدي بقيت فيها .
اركض الى الكوخ ... اجله محروقا ...
وانهار فوق كومة من الرماد والبقايا ...
أحرق في الاشياء ثم انفجر باكية ... ففي زاوية الحقل كان تماثلي ما يزال
منتصباً لكنه مشوه الوجه كن يرتدي قناعاً ...
انهار ، وأغرس اظافري في الرماد واحرق مدهولة في الحلم الذي
استيقظ ... ومشى ... ومضى ... وانتحر ...
ومن حلقي اطلق صيحة بكاء كتلك التي يطلقها الطفل لحظة ولادته ...

الساعة ٩,٢٥ مساء ٢٩ آب ١٩٧٢

نشرت هذه القصة للمرة الاولى تحت عنوان :

« واستيقظ الحلم »

حريق ذلك الصيف

الليل .

اقرب الليل .

واقرب موعد ذهابي الى المقبرة ...

(لن اذهب . لن اذهب . هذا جنون هذا جنون : يعاقب عليه القانون .

سيصرخ بنا القاضي : ألم تجدوا مكاناً آخر تمارسان الحب فيه ؟ ... سيصرخ

بنا ملاكو شقق حي « الحمراء » : لمن الشقق المفروشة والاضواء الشاحبة

والقراش المستديرة ؟ ... ستلحق بنا راهبة : « تزوجا » ... ستطاردنا الهياكل

العظمية لسكان المقبرة في مظاهرة صامتة مرعية وقد رفعوا لافتات تطالب

باخراجنا من جمهورية الموت المستقلة .. لن اذهب الليلة) .. طوال النهار

وانا اكرر هذه الكلمات ... وعندما يحين منتصف الليل ، اجلني اركض

الى المقبرة .

(لن اذهب .. لن اذهب ... هذا جنون يعاقب عليه القانون) .

ووجدت نفسي امام سور المقبرة كطفل مخطوف عاد الى داره .

ها هي الشمس قد غطست في البحر للتو .

والليل ،

الليل — سكينة الطبيعة التي تكشط النسيان عن الجراح المتعلمة ، وتعيد

الى الذاكرة نرفها — قد أقبل ...

وها هو الالم الغريب الذي يتفجر كل ليلة في كل موضع من جسدي

— يبدأ من رأسي — ثم يسيل جداول من كل اعضائي ليصب في نقطة محددة :

في معدتي ... بالضغط ، في تلك الرقعة حيث الجلد مشوه من اثر ذلك

الحريق ... ذلك الحريق ... ذلك الحريق ...

(قلت للطبيب : احسن بألم لا يطاق هنا ...

كان عجوزاً وبطيء الحركة ، وله عينان باردتان مثل عيون الدمى المحشوة بالقش . قال : تممدي واخلمي ثيابك وأشيري الى مكان الألم . وفعلت . قال لي : هذه معدتك . ربما كنت مصابة بقرحة . جيلكم يصاب بالقرحة مبكراً . تصوري ، حتى الاطفال صاروا يصابون بالقرحة هذه الايام .

وعدت أوكد له : ليست معدتي التي تؤلني . انه هذا الحرق في جلد معدتي ..

قال بدهشة وقد صارت عيناه الباردتان كرتين من الزئبق تركضان : ولكنه حرق مندمل ... جرح مندمل ... لا يمكن ان يسبب أي ألم ... وعاد يتحسس موضعه وهو يكرر : الجرح مندمل تماماً . لا يمكن له ان يسبب أي ألم . انك تتوهمين ذلك .. انه مندمل منذ عامين على الأقل ! . ولكنني كنت اتلوى ألماً ... بل انني كنت ارى ذلك الموضع يشتعل كرقعة من السبوتو فوق البلاط ... كانت هبته خافتة ومزقة لكنها حارة ومؤلمة ... وبدأت اصرخ ألماً ... وجاء الطبيب بأبرة ، حقني بها ، وظلت النار تشتعل فوق بطني لكن خدراً ممتعاً سرى في بقية حواسي ...

قلت للطبيب عبر ضبابات خدرتي : النار ما تزال ملتهبة فوق ذلك المكان ... هل تريد أن احكي لك كيف حدث ذلك ... ومتى ؟ .

رد بقسوة : لا . لقد حقنتك بأحد مركبات الافيون ومن الافضل ان تسترخي وتنامي ... غداً يجري تصوير معدتك بالأشعة ...

وحينما جاء الغد ، أمسك الطبيب بالصورة الشعاعية وقال : (نورمال) . كل شيء طبيعي و (نورمال) ... كل شيء على ما يرام ... معدتك سليمة . وأمسكت بالكروتونة البنية الشفافة ، أتأمل الخطوط التي يفترض انها صورة معدتي ، وانفجرت اضحك وضحك .. هذه الآلات الضخمة

الباردة التي مددوني على صفائحها ، واقتربت عدساتها مني وابتعدت ،
اضاءت وانطفأت ، هذه الغرفة الجهنمية والاشعة التي يفترض انها
معجزة .. أهذا كل ما اخترقته مني ؟ أهذا كل ما رسمته من اعماقي ؟ ..
يوم رسمي الباهي بعينيه المجردتين ، يديه العاريتين ، بريشته الرفيعة
الدقيقة ، استطاع أن يسر غوري وان يكشف وجود الحريق المستمر ..
المستمر .. قلت للطبيب : الحرق ما يزال مستمراً وهو سبب الألم . صرخ
انك تتوهمين الألم في ذلك الحرق العتيق المندمل .

انوهم ؟ ما الفرق ما دمت أحس به ؟
هل نحب ان أروي لك حكاية الحريق الذي لا ينطفىء ؟ ..
في فرصة اخرى . انا الآن مشغول .
ومضى . كلهم (مشغول) ولا احد يفعل شيئاً .

الليل ... وانا احوم حول سور تلك المقبرة في حي الزيتون ببيروت
(ذهب رفاق المقبرة وتفرقوا في ارجاء هذا العالم الواسع ، وبقيت أنا
ارملة الفرح لا املك الا ان احيي كل ليلة اليها) . لا استطيع الدخول
الآن فحارسها ما يزال يقظاً ... يجب ان انتظر ثلاث ساعات اخرى على
الاقل .. (يجب ان أذهب من هنا ولا أعود ابداً ، هذا جنون ... جنون)
ولكن ها انا مسمرة امام الباب الحديدي الاسود للمقبرة ... لا أحد
يلحظها ... كلهم يمر بها راكضاً كأنها ليست هناك .. يمر رجلان يتشاجران .
متعالى اصواتهما . يتوقفان بالقرب مني - قرب باب المقبرة - ويتابعان
وقد كادا يتشابكان بالأيدي .

كم هو مضحك منظر المتشاجرين عند اسوار المقابر .. الجميع يمررون
بالمقابر دون ان يلحظوها ... في حي (الزيتون) يقرأون لافتات ملاهي
الليل وكبارياتها ولكن أحداً لم يلحظ هذه المقبرة الصغيرة المقابلة للبحر ،
على مرمى حجر من البطون المهترئة بمنحون ، لراقصات الزيتون ... وانا

ايضاً لم الحظها قط قبل أن يكتشفها الباهي .. وليلة التفتت بالباهي تحملت أن يدور أي شيء بيننا وفي أي مكان الا فوق تابوت في مقبرة .. ليلة التفتت به منذ ثلاثة اشهر كانت الاحزان تطمر من مسامنا وكلماتنا وضحكاتنا ..

(كانت ليلة حزينه من ليالي اواخر حزيران ١٩٦٧ بعد الهزيمة باسبوع او اكثر ... كل اضواء بيروت قد صبغت بأزرق نيلي ، وبدأت الوجوه والابنية والشوارع والسيارات كقبيلة بدائية في حداد ... فالحرب انتهت قبل ان تبدأ ، والهزيمة حلت ... وكان الحر خائفاً والريح ماتت ، ورائحة ننته تفوح من البحر ، والالم في جرحي المنديل احسست به للمرة الثانية بوضوح تام ... يوم طردت من الحزب قبلها بأشهر - او استقلت لا فرق - احسست ببوارد الالم للمرة الاولى .

بدأ غامضاً في جسدي كله ثم صبت جداوله في موضع ذلك الجرح المنديل أو هكذا خيل اليّ ... تلك الليلة كنت والقة أن الالم هو حريق ، وأن جلدي تحت الثياب ما يزال يتابع احتراقه منذ ليلة الحريق في القرية البعيدة عام ١٩٦٥ ... وكنت اكره ان اذكر ما حدث .. وبدأت اسلي نفسي بقراءة الاعلانات على الجدران واعمدة الكهرباء .. ادور بينها كالقطط الضالة ... اقرأ صرخات احتجاج شعبية مكتوبة بدهان احمر أو اسود وبنخط مشوش . واضح ان الذين كتبوها فعلوا ذلك في الظلام ، وبأيد مرتجفة ، وفي غفلة عن الحراس .. شعارات تندد بالاستعمار وبعملائه ، تطالب بالثورة ... والخبز ... ما جدوى تلك الجدرانيات كلها ؟ ... على احد الجدران اعلان ظننته بطاقة نعوة .

كم هي مضحكة النعوات الملصقة في شوارع الشعوب المهزومة ... ما اهمية ان يموت فرد او آخر حينما نختر كرامة الوطن صريعة تحت النعال ؟ ...

أعترف انني احترفت خلال الاسابيع اللاحقة للهزيمة الدوران في الشوارع ، وتزويق بطاقات النعوات التي كنت اصادفها ...

اقتربت من بطاقة النعوة لامزقتها ، وفوجئت بأنها دعوة الى حضور معرض الفنان (الباهي الراجع) الشهير ، القادم الينا من قطر عربي شقيق . كان تاريخ افتتاح المعرض هو الخامس من حزيران . - كم هو سيء الحظ هذا الفنان ! - ومكانه في صالة العرض بالفندق الذي اقف بالقرب منه . لماذا لا ادخل واتسلى قليلاً ؟ اذا كانت اللوحات ما تزال هناك ، سأضحك وانا أتأمله وقد رسم المناظر الطبيعية التقليدية الخضرة بينما الدماء تلتطخ حقول بلادي ، وربما كانت هنالك لوحة لبورجوازية ملساء البشرة - لم يحترق بطنها ولم تسمع صوت قبلة ولم تدخل حزباً ولم تتمزق وتهترى قبل ان تبلغ الخامسة والعشرين من عمرها - تجلس خائف البيانو مثلاً او تشتغل (الكانفا) ... اجل ... سأدخل الى المعرض وسأمزق اللوحات كما امزق النعوات ...

دخلت الى الفندق . كان فارغاً تماماً . هبطت الدرجات العديدة وانعظت عينيماً الى صالة العرض ...

كانت الاضواء شاحبة والقاعة فارغة تماماً وعلى الجدران لوحات مذهلة ... لا نساء . لا بيانو . لا ولائم . لا شيء في اللوحات سوى لون رمادي حزين بظلاله كلها ، لوحات توحى بأن من رسمها كان يرسم فيها كلها شيئاً واحداً اسمه الهزيمة ... من اللوحات تفوح رائحة الدمار والهشيم والحريق ، وصدى صراخ النساء والاطفال ، وبقايا الرجال في الارض المحروقة ... كان الرمادي في اللوحات هو رماد الارض المحروقة وبه رسمت اللوحات كلها .

وبدأت ادور بينها ... بين الحين والآخر تطالعي نقطة بيضاء صغيرة ، او خط اصفر كشعاع شمس يرمز الى الامل ، لكنه أمل صغير وسط هذه الارض المهزومة المحروقة .. يا له من فنان ! لو لم اعرف أن تاريخ هذه اللوحات يعود الى ما قبل حرب حزيران لما صدقت ... ها هو الباهي وقد استطاع بروياه الفنية الناقبة ان يتنبأ بالهزيمة قبل حدوثها ... هذه

اللوحات هي بكائية الهزيمة ، هي نبوءة بها ... لو تأخرت الحرب شهراً
لقامت قيامة النقاد من رفاقي في الحزب على تشاؤميتها ... لاتهموه بالعمالة
وبإضعاف الروح المعنوية للشعب كما اهتموني عبر كتاباتي في جريدة
الحزب شبه الرسمية ... نجيء الى الحزب كي نكافح عبره من اجل الحرية ،
ونفاجأ بالديكتاتورية في اساليبه مع نفسه وبين اعضائه ... قلت لهم انني
لا اذري كيف يمكن لحزب ينادي بالحرية ان يمارس الديكتاتورية في
اساليبه ... فقالوا لي ان « الصفحة » التي احررها متشائمة . قلت لهم :
لا نستطيع الغاء الحقائق او التكميم عليها بحجة التفاؤل الثوري ... قالوا
انني بدأت انحرف . قلت لهم بل ان الحزب ينحرف عن ذاته حين يخون
المبادئ التي وجد أصلاً ليحققها .. قالوا : التفاؤل الثوري اولاً . قلت :
الحقيقة اولاً . قالوا : التفاؤل اولاً . نفذي ثم ناقشي ... وأصررت
على أن أناقش ولم أنفلد !

عدت ادور بين اللوحات والعرق يتصبب مني وامام كل لوحة اكنم
شهقة ... ثم شهقت حين اصطدمت برجل في القاعة لم انتبه حين دخل
اليها ..

قال لي بشيء من السخرية : أهلاً بالمتفرجة الوحيدة لمعرضي ... هل
اعجبك ؟

اذن هو الباهي . عينان ذكيتان نفاذتان وصوت شرس وشعر عسلي
وقميص اسود ويدان كبيرتان كأيدي عمال المصانع ووجه نظيف وصريح
وواضح ، وسؤال طرحه علي من المفروض ان ارد عليه . هل اعجبني
معرضه ؟ ... احسست عبارة (اعجبني) هزيلة ومصابة بفقر الدم في
التعبير ... القضية امام لوحاته ليست (اعجاباً) ... انها لوحات موجعة ،
تهز ، توقظ ، تنبش الجرح وتعرضه امامك ... انك لا تستطيع ان تقول
ان الجرح اعجبك ... ولكنك تدهش لمهارة الفنان في الاحاطة به واكتشافه
قبل ان يحس به الجسد الجريح ... اعجبني معرضه ؟ بل هز جذور احزاني

كلها ... معرضه تجسيد عملي وفي لكل ما حاولت ان اقله لرفائي في
الحزب من نبوءات حزينة ، انه البات لصحة ما اقول .. ولكن ما جدوى
ذلك ؟ لا ريب أنهم بعد الحرب ازدادوا الآن تمتاً وفاشية وديكتاتورية
وارهاباً ... يا للتعجيب ! .. ماذا اقول لهذا الرجل الواقف امامي يسألني
رأبي بلوخانه ؟ هل اقول له انها نبشت احزاني كلها ؟ وانه حتى « حادثة
الحريق » اراها مرتسمة في احدى لوحاته واشم عبرها رائحة اللحم المحترق
واسمع صراخ الاطفال وصراخي .. و ... وماذا اقول ؟
بدت على الباهي غيبة الامل لصمتي . قال بلهجنه العربية التي تكشف
لكنته قطره : طبعاً لم يعجبك . لوحاته لا تصلح للصالونات . انها على اية
حال ليست للبيع !! ..

وسمعنا وقع اقدام على الدرج ، وفوجئت بدخول (ابو رعد) وبدأ
من ترحيب الباهي به انهما صديقان حميمان ... سرتني تلك المصادفة ،
فابو رعد - كما يحلو لنا أن نلقبه في مقهى « الهورس شو » لان ضحكته
التي لا تفارقه تزلزل كالرعد - .. صديق قديم وحميم ، ورفيق سابق
ترك الحزب منذ اعوام بعيدة ، وكان يسخر دوماً لما يسميه بانضباطي
ومسلكتي الحزبية الرصينة ... وبعد ان اطلق ضحكته الشهيرة الشريرة
البراءة ، لم يفته أن يسألني بجنه المعهود :

— ماذا ماذا ... الحزبية النشيطة ليست في الجريدة ؟ لاحظت ان « زاويتك »
قد غابت منذ اسابيع ولم اكن ادري ان الباهي هو المسؤول عن ذلك ..
وقال الباهي :

— ولكننا لما نتعارف بعد ...

ولم تنقض ثلاث ساعات الا وكنا قد تعارفنا ، فقد قضيناها صامتين
تماماً ... مارسنا معاً حزننا الليلي عبر اقنعة الضحك .. ووعيت ان هذا
الوجه الوسيم ليس الا باباً مغلقاً تكمن خلفه دهاليز احزان وحكايا
صراع لا نهاية لها ... وأنا يا انا ...

سرنا طويلاً على « الكورنيش » الطويل الممتد على طول الشاطئ ..
افقدت مصابيح صيادي الاسماك ... الارصفة مرشوشة بالناس ، يتكبدون
« الترانستور » كالبنادق المكسورة ، ويمشون بثقال الجنود المهزومين ،
ينصتون الى الاخبار والى اغاني ام كلثوم وبين فينة واخرى تفوح رائحة
« الحشيش » الذي حشوا به لفاقاتهم ... الشعب الفقير الحزين المتعب ،
يترنح فوق الارصفة وخلف نارجيلات المقاهي كمن اصابته ضربة في
رأسه لما يصبح منها بعد .. وبعد لحظات بدأت اشعر أن رائحة العفونة التي
كنت اظنها تنبعث من البحر بفعل حرارة الجو قد تكون رائحتنا نحن ...
نحن الناس المهزومين المقتولين دون ان ندري ، الراكضين بجثتنا في شوارع
العواصم العربية والمدن والقرى ...
وقال ابو رعد فجأة : رائحة البحر كريهة جداً الليلة ، كأن الاسماك
كلها ماتت وتفسخت ... كأننا في مقبرة كبيرة ...
لم أرد .

وكلما توغلنا مسيراً ، ازداد شعوري بأن رائحة العفونة التي نلحظها
تنبعث من البحر بفعل حرارة الجو قد تكون رائحتنا نحن ... نحن الآلاف
الذين نغطي الارصفة ، المهزومين ، المقتولين دون ان نلاحظ ذلك ،
الراكضين بجثتنا في الشوارع رغم اننا متنا منذ عشرة ايام او اكثر ...
نحن الراكضين في المظاهرات بعد الهزيمة ، المتصقين بترانستوراتنا ،
المستنفذين لكل ما في الصيدليات من اقراص مهدئة ، المتلاشين على الارصفة
في ليل الهزيمة الازرق الحزين ، متنا قبل ذلك كله ، وها هي رائحة العفونة
تفوح منا ... كأن الوطن صار مقبرة واحدة كبيرة من المحيط الى الخليج ...
كم انا الليلة متشائمة ... كم انا الليلة حزينة وعاجزة عن التفاؤل الثوري ...
اشعر ان بديهة الثورية هي ان نعرف على الاقل بالامر الواقع .. « كم
انا الليلة حزينة » .. قلناها فيما يبدو بصوت عال .
قال ابو رعد ساخراً : تعالوا نذهب الى مقاهي المثقفين نستمد شيئاً

من التفاؤل الفكري .. هيا نحتاج الهورس شو والدولشي فينا و .. و ...
وفي المقهى كانت هناك (وجوه) لمفكرين وفنانين ... يفلسفون
الهزيمة ... يجترونها نظرياتهم ... يتشاجرون من وقت الى آخر . فلسطين
لعبة شطرنج فكرية لديهم ..

ثم صمت الجميع حين وقف كاتب مقال مهنته العلاقات العامة ،
يحاضر عن الامة وعن حاجتنا الى الالتصاق بالغرب ولحق حذاء اميركا ...
وتعالت الاصوات : اسكت يا وائل . وسكت وائل وعاد الى زاويته
في المقهى بعد ان طلب من الجرسون (ويسكي دابل) ...

وجلسنا مع الشاعرين « جاد » اللبناني وسرعون العراقي الرقيق ، الذي
ظل صامتاً ومذهولاً ومصفر الوجه ، حتى انه حين فتح فمه ليقول شيئاً
خيل الي انه سيصرخ آه ثم يسقط ميتاً ، وقبل أن يقول شيئاً نهض عبقرى
آخر ، وبدأ يتحدث بصوت عال عن فضائل الهزيمة ، وكيف انها نكسة
وليست هزيمة ، وبدأ يخون كل من يخون على ان يقول عبارة هزيمة .. (لماذا
دوماً مواجهة الحقيقة خيانة ؟ كيف نتصر ونحن نخون ذاتنا حين نموه
عليها الحقائق ؟)

واحسست بحاجة الى ان اكون وحدي فهربت الى (توايت) المقهى
واقفلت الباب على نفسي وبدأت اكرر : هزيمة . هزيمة . قتلنا . كلنا
اموات . اموات . ثم نظرت الى وجهي في المرآة وصرخت ، فلم يكن
لوجهي اي انعكاس في المرآة ! لم تكن لي صورة في المرآة ... وتلاشيت
وقد اشتعلت النار في معدتي .. (احسستي احتضن الطفل الملتهب ،
واركض به بعيداً عن المدرسة المشتعلة ... وتلاشيت) ... ايقظني قرع
على الباب . وصوت الباهي : ماذا حدث ؟ لقد تأخرت . طبعاً تصلحين
« ما كياجك » ... قالها بسخرية ! ... طبعاً . طبعاً . وخرجت اليه .

كان هنالك محاضر جديد ، وعلى وجه « ابو رعد » عبوس لم اراه
قط من قبل حين قال : اشعر بأنني في بيت للمومسات . هذا العهر الفكري

لا يطاق . تعالوا نسهر في « حي الزيتونة » فهذا أفضل ... ان العاهرات
هناك يحاضرن عن الشرف اقل مما يحاضر مثقفونا عن الوطنية .
وغادرنا (مقبرة المثقفين) واتجهنا نحو الزيتونة ...

بدهشة قال الباهي : هل ستأتين معنا ؟ ..

ولم ارد وانما ازدددت التصاقاً بهما ... سأذهب معهما الى اي مكان
... المهم الا أبقى وحدي في الليل ... منذ هجرني الحزب - او هجرته -
صار الليل مأساة ، وعاودتني آلام الحريق في بطني ، ومنذ ايام الحرب
والهزيمة والحريق لا يفارقني ... اقضي الليل وانا ادور في الشوارع وحيدة ،
يطاردني رجال يريدون شراء لحظات نسيان مع اية امرأة ... تطاردني
ذكرى تلك المدرسة ، والاطفال والقنابل والحريق ... ان عملي في الصباح
(كمساعدة بحالة) للبروفسور عطا في الجامعة لم يعد يكفي ... يجب
ان افتش عن عمل ليلي ... اي عمل يقيني هذا التشرذ الموجه ...

وصلنا الى الزيتونة . دخلنا خلف « ابو رعد » في بناء عتيق مهترى ،
وصعدنا درجاً شاحب الاضاءة . ها نحن في دار عتيقة تفوح من جدرانها
رائحة عفونة وكحول وعطور رخيصة .. الابواب مفتوحة على بعضها ،
وقد تناثرت فيها الطاولات والمقاعد القشبية المهترئة ... المكان مظلم بما
فيه الكفاية لئرى أن حول بعض الطاولات نساء سمينات وتعفيك الظلمة
من مزيد من تفاصيلهن ...

. وتقدمت منا احدى النساء وحينما صارت أمامنا تماماً تبدت بشاعتها
الفائقة . نظرت اليّ بشراسة وقالت :

- المضاربة ممنوعة . عودي الى مركزك ...

وقال الباهي بسرعة : هي معي . رفيقنا يبغي واحدة لنفسه ...
تناست قضية (اخلاقية العهر ومكافحة المضاربة) وسألتنا ماذا نريد
ان نشرب ... ثم ذهبت الى آلة « الجوك بوكس » ووضعت اسطوانة ..
« تعالوا نتدلع » بينما نهضت اخرى ترقص على انغامها بضجر واضح ..

كان الجو ثقيلاً وحزيناً ولم تقف أيهن لتحاضر عن أي شيء ... كان الحزن كثيفاً وحقيقياً ومرهقاً ، لذا لما جاءت الكأس أمامي ابتلمتها دفعة واحدة واحسست بسائل ناري يكوي حلقي وبرائحة ذكرتي (بوأبور الكاز) في قريتي البعيدة .. ولاحظت فيما بعد ان « أبو رعد » والباهي قد فعلا الشيء ذاته .

جلسنا طويلاً ، وشربنا طويلاً ، وصمتنا طويلاً ، وكرت الاغاني وتوالت نساء المكان على اداء تلك الرقصة المتناقلة ، بحزن ولا مبالاة دب يدور به صاحبه في الشوارع ، ويرغمه على اداء دوره امام المارة .. ولاحظت وقد اعتادت عيناى الظلمة ، ان الجدران متآكلة وطحالب العنق قد نمت عليها وانها تشبه الدمن القديمة والقبور الفقيرة التي لا شواهد من رخام عليها تشير الى هوية اصحابها ... وأن رائحة الموت تفوح من المكان ... وفي صدر القاعة كانت هناك امرأة مكسرة نظرت اليها ولم ار فيها وجهي ، كما لم أر أحداً من الموجودين . ربما كانت الظلمة . وربما كنا حقاً امواتاً ... كلنا .. كلنا ... وعادت رائحة العفونة النتنة التي شمنتها على الكورنيش وفي مقاهي المتطففين تملأ انفي ، والتهبت النار في بطني ... كنت احسها تحرقني تحت ثيابي سراً وباستمرار دون ان يشم رائحة اللحم المحترق احد ، ودون ان يلحظ ذلك أحد ... ربما بدأت ابكي . اخرج الباهي اوراقه وبدأ يتأملني ويرسم ثم قال لي :

— كم انت حزينة جميلة .

ثم مزق الورقة وعاد الصمت ...

فجأة قال أبو رعد : تعالوا نهرب من هذه المقبرة الاخرى .. من جديد خرجنا الى الليل . لكن الرائحة كانت هناك ايضاً . سرنا قليلاً . تجاوزنا كاباريهات الزيتون وكهوفها ، ومحطة البنزين مغلقة وبلا اضواء ، كأن وقود العالم كله نفذ ، ثم قطعنا الرصيف ومررنا بسور طويل يحجب ما خلفه ، ثم باب اسود صغير ... كانت الساعة تقارب الثانية صباحاً والارهاق يجلدني ..

قال الباهي : كم انتما مملآن ! يا لها من سهرة مضجرة ! .. كل منكما جنازة قائمة بذاتها ومن الافضل ان اسهر معكما في المقبرة ..
قالا شبه ضاحك ودفع الباب الاسود الصغير وكما كانت دهشتي عظيمة حين انفتح الباب ولم يكن مقفلاً وبدت خلفه في النور الشاحب مقبرة ! ...

وفوجيء أبو رعد بذلك كما فوجئنا ... ولكنه تابع النكتة ورغبة في تحريك الامسية بأية وسيلة تحرضه ... قال للباهي :

- تعال ندفن نوف في المقبرة ... انما ميتة على اية حال ...
في عينيها التمع بريق قاس وسادي مثل التماع فأس في الظلمة قبل ان تهشم جمجمة رجل . احسنت انهما قد يفعلان ذلك ، قد يمارسان تمثيلية دفني وهما جادان ... واحسنت براحة عجيبة مثل محكوم بالاعدام ينتظر جلاده منذ اسابيع بلا نوم ... واخيراً حضر الجلاد ...

بكل هدوء دخلت الى المقبرة ... كان كل شيء ساكناً ومريحاً والموت علياً وبلا اقنعة . الرائحة التنتة التي تظلل سماء المدينة كسحابة ليست في المقبرة ... ولم يخرج أحد من قبره ليلقي خطبة يقول فيها انه ليس ميتاً ، وكل شيء ساكن بين الاشجار العالية المتناثرة في المكان .. تبغي الباهي وابو رعد ...

وهمس الباهي : - الست خالفة ؟ ..

واشرت اليه أن يصمت ، فقد كان هنالك صوت شخير خافت ، وقبل ان يهرب الباهي أو ابو رعد خوفاً اشرت نحو جسد ضخم مرمي على الارض لرجل نائم .. وفي الظلمة التي اعتادتها عيناى كقطعة شاهدت الى جانبه بطحتي عرق فارغتين . قلت هامسة :

- انه حارس المقبرة .. لا تخافا ... انه ثمل كقربة ماء .

سرت امامهما كأني دليل هذه الخراب . تجولت بهما بين القبور كمن يدور بالزوار في بيته ... تذكرت فجأة كل قصص خوف الناس من المقابر ودهشت لها .. كانت المقبرة هادئة ووديعة وسكانها صامتين

كالمفكرين والفلاسفة ...

وتوغلنا فيها حتى وصلنا الى باب حديدي يقود الى مدفن ما تحت الارض - لا ريب في انه مخصص لعائلة ثرية - وحاولت فتحه لكنه كان مغلقاً باحكام .. وتابنا سيرنا بهدوء ، وكنت أقرأ شواهد القبور الرخامية كأنني ابحث عن اسمي فوق قبر منها ... ولم أجده ... وقررت ان قبري مثل قبور الاطفال والفقراء لا شاهد عليه وان اية قطعة تراب هي لجنتي ... وصلنا الى مكان مظلم جداً قرب جدار عال ، اصطدمنا بشيء خشبي تبينت فيما بعد وانا انحسسه انه صندوق كبير .. او تابوت ... وهنا كان ابو رعد قد استعاد انفاسه وتذكر أن المقصود من دخول المقبرة كان اخافتي والضحك قليلاً ... لذا مد يديه الى غطاء التابوت ، فانزاح عنه بسهولة غير متوقعة وقال لي :

- تمهدي في تابوتك ...

بكل هدوء تسلقت التابوت ، وتعددت في داخله ، أحسست نعتي باقمشة باردة وبشيء صلب . تعاون الباهي وابو رعد على اقفال غطاء التابوت فوق . غمرتني الظلمة والصمت والسكينة ، أحسست براحة طفل عاد الى رحم امه الحنون ... استرخيت داخل التابوت كما لم اسرّخ منذ اعوام بعيدة ، انا اللاجئة المطاردة ، الحاملة لحقيبتني وافكاري واخطائي الراكضة بها داخل فم تمساح انزلق على اسنانه وانجرح وهو لا يتلغني ولا يفرج غني ... تعبت تعبت تعبت . كم أنا متعبة ... كم أنا متعبة ... ها قد انطفأ الحريق فوق بطني ... منذ عام ١٩٦٥ وهو مستعر .. منذ انهيت دراستي الجامعية وعدت الى قريتي الصغيرة في الضفة الغربية قبل ان تكون محتلة وانشأت تلك المدرسة لاطفالها ... طيلة ايام دراستي في الجامعة ببירות لم اعرف الراحة ... عجزت عن التكيف مع تلك المدينة التي تكبر بسرعة وتصغر كل يوم اخلاقياتها ... كأن نتمن كل ناطحة سحاب تعلو فيها قطع جذور قيم انسانية كثيرة .. كنت فقيرة وقد انقذني

ذلك من رعب الليل والوحشة في بيروت ... فقد كنت اعمل في جريدة
الحزب ليلاً ، وادرس بقية الوقت ... ويوم حملت شهادتي باحدى يدي
كنت احمل بطاقة العودة الى قريني باليد الاخرى ... الغارات الاسرائيلية
المتكررة على القرى لم توفر قريننا ... ولماذا توفرها وفيها رجال اشداء
شجعان كبقية القرى ؟ ... ما لا يستطيع فهمه ، لماذا قتلوا امي العجوز
الكسيحة في كرسيها المتحرك الذي ابتعته لها من اول راتب حصلت عليه ؟ ..
ولماذا رموا القنابل على مدرستي وليس فيها طفل عمره يفوق الرابعة عشرة ؟ ..
كان هنالك ولد مصاب بشلل الاطفال حاول ان يركض مع رفاقه الممارين
وقد اشتعلت النار في طرف ثوبه وهو يعرج كدجاجة قطعت احدى ساقيها
للتو .. كنت في طريقي الى الهرب والسقف يتداعى كتلاً من نار .. لم
استطع تركه يشتعل هكذا . خلعت معظفي السميك ولففته به واحتضنته
وكان مثل جمرة تعول وتصرخ وفجأة احسست بأن بطني حيث ضممته
اليّ يلتهب وانني اعوي معه في صرخة الم متوحدة .. كم كان الالم رهيباً !
حتى حينما فكروا الاربطة عني ظل الالم حاداً كلما وعيت انني فقدت
امي وداري التي حولتها الى مدرسة وشاهدت أطلالها ... وهربت من
قريني الى بيروت لاعمل ولاأسى ... غرقت في عملي . صباحاً في الجامعة
كمعاونة للعميد البحانة . مساء في جريدة الحزب ... وكدت انسى كل
شيء عن جرحي المندمل .. لم اعد اذكره الا حينما استحم ... وذات
يوم طلب مني العميد عطا ان اعد له معلومات حول الامية في البلاد العربية ..
وبدأت اجمع المعلومات ... هالتي الاحصاءات ، والنسبة المرتفعة للامية :
٩٠٪ . وفي المساء حين ذهبت الى جريدة الحزب لاكتب التهيت النار
في جرحي غير المندمل ، اذ وعيت ان الناس الذين اريد ان اخاطبهم هم
الذين يعجزون عن قراءة سطورى ..

اما الآن فما استرخي في التابوت ، انطفاأت النار في جلدي وهذأت
الجمرة المنتصقة بمعدي ، دموع تنحدر من عيني بصمت مطبق كما

تتعرق جدران المغاور غير المكتشفة ، اترك ذراعيّ تسقطان في ظلمة التابوت
مثل مجدافين بلغ قاربهما شاطئه الاخير . افرد اصابعي في كفي مثل طير
متعب يفرد في العاصفة جناحيه ويتركها تقوده الى حيث تشاء ، واعي
وعياً مبهماً بأن الشيء الصلب تحتي قد يكون جثة ملفوفة بكفن ولكن
ذلك لا يهمني ... الا يدفن الاموات فوق الاموات في قبر واحد؟ ..
ومن خارج التابوت يتعالى صوت ابو رعد والباهي وهما يغنيان شيئاً ما
بلغة غير مفهومة ، وبنغمات بدائية حزينة كنائية ، كصوت اول ارغن
في كنيسة ... نغمات ملناعة كصوت الريح في حقل من القصب ... كم
هو رائع ان ينتهي كل شيء هنا ، ببساطة ، لبالي الوحشة الطويلة تنتهي ..
منذ فقدت « حبيبي الحزب » وانا اخرج كل ليلة من مقر عملي في
الجامعة بعد ان يأتي عمال التنظيف ثم الحارس لاقفال المكان ... يطردوني ...
والعميد يقول : انك ترهقين نفسك في العمل يا آنسة نوف . كلهم يرمون
بي الى الليل الوحش ، وفي الخارج تنتظرني بيروت المضينة الصاخبة مثل
مجنونة تنتحر وهي ترقص وتشرب الديمول ...
وفي بيتي الصغير تحولت وحشتي الى خوف من الظلمة ... كنت
اشتاق سماع صوت انسان صديق ..

وكنت اهرب من اصدقائي والملم نفسي على اسراري واحزائي ...
عامان عشتهما في بيروت عرفت فيهما عشرات من الاصدقاء فازدادت
وحشتي ، وجاست فوق جلدي شفاة عشرات من الرجال لكن أخذاً لم
يكتشف الحريق في مسامي او الجحمة الدائمة الاشتعال تحت رماد غنجي ...
وداعاً لليل الوحشة الطويل ، ايام كنت أقلب دفتر تليفوناتي اسماً
اسماً فقد يكون هنالك انسان حقيقي مررت به دون ان أحظه او شخص
أعيد النظر به ... ولا أجد أحداً ، ويستبد بي الشوق الى سماع صوت انسان ،
فأدير قرص الهاتف على الساعة الناطقة استمع الى الصوت المسجل على
الشريط واقول له اشياء كثيرة بينما هو يتابع ذكر الوقت مع الثانية دون

أن بصمت للحظة أو يشاركني البكاء على كل ما كان ... وداعاً لكل شيء ... كم هو رائع ان تنتهي اللعبة ، وأعود الى وكري الاصلي في رحم الموت ...

استرخيت في التابوت باستمتاع ورحت في اغفاءة لذيدة ... فقد كان محكم الاغلاق ، لا يتسرب منه الى الداخل خيط واحد من نور (أم تراني رحت في اغماء لنفاد الاوكسجين من التابوت ؟) طبعاً لا . الاموات ليسوا بحاجة الى كل هذه الكماليات كالأوكسجين ، والخبز ... اني ميتة ... كم ذلك رائع ومريح ... كل ما كان ، ينحسر عن حواسي مثل موجة تنحسر وتخلف على الرمال صدفة فارغة حتى من الصدى ...

اسمع اصوات الباهي وابو رعد شريكّي في مسرحية الموت ... يبدو انهما يعيشانها بقدر ما أعيشها ... أسمع صوت الباهي يأتي كما لو من جوف الارض : من التراب والى التراب ... من الرماد والى الرماد ... فلترقد بسلام ...

وأبو رعد يقول بصوته العميق : هنيئاً لك رحيلك عن مقبرتنا الكبيرة .. لقد أحببناك الى حد اننا لم نجد ما هو أثنى من الموت تمنحه لك ...

أصواتهم تذكرني بأن ما يدور هو مسرحية ، تماماً كما تذكر أصوات بقية الممثلين البطلة الغارقة في دورها أن الستار سيسدل بعد دقائق وسترغم على العودة الى عالمها البغيض ، والى ريح الليالي المعتمة القارسة التي تنتظرها عند رصيف باب المسرح الخلفي .

وفعلاً أسدل الستار فجأة حين صرخ الباهي وهو يكشف عني غطاء التابوت : ماذا دهانا؟ انها لا تتحرك في التابوت . ولا تصرخ خوفاً . ولا حتى تقرع غطاءه .. هل يمكن أن تكون قد اختنقت ؟ هل يمكن أن نكون قد قتلناها ؟

ارتفع عني غطاء التابوت ايذاناً بطردي من المسرحية الرائعة ... بلا مساعدة خرجت من التابوت وحب عظيم نحو شريكّي في لعبة الموت

بملائي ... كم اراحتني التمثيلية ... بامتنان عظيم ، تقدمت من كل منهما وقبلته بكل عذابي في شفتيه ... وأحسست أنني أحبهما معاً ... وفي وقت واحد ، وبالمقدار ذاته !

تابعت سيرتي في المقبرة ... وصلنا الى محراب صغير فيه هيكل لكنيسة مصغرة متشقة لا تضم سوى مقاعد خشبية عتيقة مغبرة (ربما برماد الموت) وقد نما العليق والاشواك في أرضها الترابية ، ولم يكن فيها أية نالفة سوى كوة واحدة صغيرة مستديرة في أعلى السقف تنصب منها حزمة من النور وتبدو مثل الشمس السرية الخاصة بهذا العالم العجيب .

جلسنا على أحد المقاعد متلاصقين كتلاميذة أطفال أول يوم في المدرسة ، لا يعرفون ماذا يتوقعون ... ولم يطل أحد ... ولم يطل الاستاذ ... ظلت الكوة مثل عين فاعرة بلا أهداب تحديق فينا ، وشمسها الباردة الزرقة تلسعنا ...

قال أبو رعد : انها أضواء « نيون » الشارع .

وصادقنا بسرعة مؤكدين كلامه لكننا جميعاً كنا نشعر أن الامر أبعد من ذلك وان كان يبدو كذلك ...

جلسنا طويلاً على المقعد الخشبي . فجأة سمعت أصواتاً وهمهمات ، ووقع خطي رجال (أو اشباح) في المقبرة خارج الهيكل الصغير . ظننت اني أنوهم . ان نوبة مسرحية الموت انتهت واستعدت خوفاً الطبيعي ... لكن الباهي سأل : هل تسمعون شيئاً . أكد ابو رعد ذلك ... خرجنا راكضين ولم نر احداً ... ومع ذلك بدا اننا فقدنا جميعاً شهيتنا الى البقاء في المقبرة ...

بينما نحن نخرج منها ، اقترب الباهي من أحد القبور وشد الصليب الرخامي (الشاهدة) وانتزع من موضعه في الارض ، ثم أعطاه لي قائلاً : احتفظي به تذكراً لهذه الليلة ! ... هل كان يظنني بحاجة الى تذكاري لا انسى ؟ ... وكيف انسى ... كيف كيف انسى بقية ما كان ؟ وحتى لو لم يملأ لي بيتي بشواهد المقبرة « التذكارات » ... كيف كان يمكن

ان انسى) ...

المطر يهطل بشدة . انها اول زخة مطر في ايلول بعد هذا الصيف الطويل الطويل ... وانا ما ازال مغروسة على الرصيف امام باب المقبرة اعجز عن الذهاب الى اي مكان آخر ... لا اجرؤ على الذهاب الى بيتي (أشعر بالخوف والوحشة هناك اذا سقط الليل وكنت وحيدة . المكان الوحيد الذي لا يساورني فيه الخوف واحس فيه بالامان هو المقبرة) ... لماذا لا اذهب الى ذلك الفندق الهادئ القريب من الدولشي فيتا واجلس الى شرفته (منذ ايام ذهبت الى هناك في غمرة صراعي مع ذاتي كي أكف عن ادمايني على المقبرة . كنت جالسة على الشرفة حين وصل رفيق كبير في الحزب ومعه كلب ضخم جداً . كنت خائفة من الكلب ، ومع ذلك اضطررت الى الاستماع الى محاضراته عن ضرورة عودتي الى العمل الحزبي المنظم ، وانه سيتوسط لديهم من أجل ذلك . وحدثني طويلاً عن اليسارية والفقر والشعب الجائع المهزوم وضرورة تقديم تنازلات حتى من حرياتنا لاجل تأمين اللقمة للجميع . وبعد لحظات جاء الجرسون وقال له : الطعام جاهز كالعادة ... وفوجئت بربطة طعام كبيرة ملفوفة بالورق الفضي تنتقل من يد الجرسون الى (الرفيق) الذي قال لي بكل بساطة شارحاً : هذا الطعام لكليتي . فأنا أعزب كما تعلمين وليس هنالك من يطهو لي وهي تحب طبخ مطعم هذا الفندق (أي كلبته أو كلبه) . ومضى قبل أن أصرخ به : أنت جثة محشوة بشريط تسجيل وشعارات ... رائحة الموت تفوح منك ... وهربت الى المقبرة) .

انها تمطر بشدة ... ها انا ابتل حتى عظامي ... لو امطرت اعواماً لما غسلت مئة مليون جثة مشلوجة في شوارع وحقول وسهول وكهوف هذه الرقعة من الارض ... الى اين اذهب ؟ ..

اقترب من باب المقبرة وافتحه قليلاً ... ها هو الحارس في ركنه المفضل قرب الباب وقد احتسى بالشجرة الكبيرة وبدأ انتحاره الليلي البطيء ببطحة

عرق بين شفتيه ... لا أستطيع الدخول الآن ... لماذا لا اذهب الى عكور افندي وارضى بأن اكون صديقته واستريح ..؟

(رفع عكور افندي حاجبيه الابيضين اللذين لم يعلق بهما الصباغ الاحمر الذي طلا به شعره وقال لي : انت بنت حلوة وناعمة ... يجب ان تكوني « فتاة صالون » ... « ست مجتمع » ... انا مستعد لتزويجك من « أكبر رأس » في البلد ... ما الذي يرمي بك الى النشاط الهدام في الاحزاب الخطرة ذات المبادئ المجنونة ؟ .. لماذا هذا الارهاق (والتعبير) والعمل طول النهار ؟ وكنت ليلتها قد طردت - أو هجرت - الحزب ، وكنت بهجري له أعبر عن ذروة تقديري لمبادئه التي ما تزال في عروقي . قلت له : مبادئ حزبي ليست هدامة . انها رائعة ... أما عن العمل طول النهار فأمر لا اختيار لي فيه . انا بنت فقيرة ووحيدة ولا أستطيع (احتمال عشيق) ينفق علي ولن اتزوج كي أجد معيلاً مادياً ...

ارتجف كرشه لوقاوتي ، وبدأ عرق الصباغ يسيل من فوديه كساقية من الطين الاحمر وصرخ بي : اضبارتك عندي وأستطيع في أية لحظة اخراجك من البلاد ...

ثم لان فجأة وقال وقد قدم لي كأساً من النبيذ : هذه زجاجة نبيذ نادرة تعبئة عام ١٩٢٩ .. اشتريتها بمبلغ ٢٨٥ جنيهاً وخبأتها لمثل هذه الليلة النادرة ... اقتربي يا حلوة وعودي اني ...

ولم أكن أنثى . كنت حيواناً جريحاً متعباً . شربت من خمrote ولا أدري لماذا كان مذاقها كمذاق الدم ... ٢٨٥ جنيهاً ثمن هذه الزجاجة ؟ .. أي ما يكفي ثمناً لبناء مدرستي المحترقة ولفتح أكثر من مدرسة ... وتدافعت في رأسي أرقام الاحصاءات عن الامة التي كنت طوال الصباح اعمل عليها . شيء ما أجهله حرك يدي لتمسك بالزجاجة ولتكسرها على طرف الطاولة الرخامية ، ويسيل فوق السجادة النادرة ٢٨٥ جنيهاً تمتصها بشرارة ... ونهض عكور افندي مجنوناً بالمفاجأة ، وكان طرف الزجاجة المكسور ما

يزال في يدي . سمعت صوتي يقول بهدوء السفاحين : اذا اقتربت مني
قتلتك . وكنت اعنيها . وأدرك هو ذلك وتركني أمضي ...
في اليوم التالي كنت اتوقع نبأ اخراجي من البلاد . لم يحدث شيء ،
وانما هتف عكور افندي معتذراً عن (تعكيره) لمزاجي البارحة ، قائلاً
انه بانتظاري وانه واثق من اني سأجيء اليه ذات يوم ...)
تمطر .. فلتمطر ولتذبني كمنثال من الملح . لن اذهب اليه ... ليست
رائحة الصبغة هي التي تفوح من شعره رغم كل عطوره الثمينة ، وانما هي
رائحة ادوية التحنيط . انه رجل ميت ومحنط منذ زمن بعيد ... وانا اكره
الموت المتنكر ...

كل ما في الخارج مقبرة ، وهذه المقبرة الصغيرة هي الواحة .. لماذا
يخشى الناس المقابر وهم يعيشون في وسطها دون ان يدروا ؟

اعود لأتلصص على حارس المقبرة عبر الباب . لقد ادار ظهره . أنسل
بسرعة . لا يلحظني احد من المارة (حمداً للغيوم لانها تمطر وتشغل الناس
عن فضولهم فيما لو شاهدوني انسل الى المقبرة في هذه الساعة من الليل ...
اهتمامهم الآن منصب على اناقتهم المهددة بالمطر) .. اركض بسرعة الى
الداخل واختبئ خلف قبر رخامي كبير كفراش اسطوري تظللني سنديانة
ضخمة ... فوق هذا القبر عرفت الحب كما لم اعرفه طيلة حياتي ... كان
ذلك بعد ان هجرنا جميع رفاق المقبرة وبقيت وحدي والباهي ذات ليلة ..
رفاق المقبرة ، ما كان اصدق تلك الليالي ! .. سرغون وجاد وكريم وعصام
ووديع و .. في اليوم التالي لسهرتنا الاولى في المقبرة لم نذهب اليها وحدنا .

(انتظرت منتصف الليل بفارغ صبر بعد أمسية عذاب واحترق ،
وذهبت الى (افورس شو) بحثاً عن الباهي وأبو رعد ... كنت أشعر
بحاجة ملحة للذهاب الى المقبرة ثانية واداء مسرحية الموت والتمدد داخل
التابوت ... وجدتهما جالسين مع مجموعة من الرفاق ... سألتني احدهم :
هل شاهدتني البارحة على التلفزيون ؟ كنت اتحدث عن النكسة ، وقالوا

انني كنت وسيماً ! لم أرد وانما قلت للباهي وابو رعد : هل نحبان الذهب
معي الى المقبرة ؟ ...

ونها فوراً ... كانت مقبرة المثقفين تطبق على انفاسهما . قال سرغون
وهو لا يعرف اننا ذاهبان فعلاً الى مقبرة : سآتي معكم ... وهب كريم
معه واقفاً ، أما جاد فسبقنا الى الباب . خرجنا جميعاً وسرنا صامتين حتى
وصلنا الى المقبرة . دفعت بابها وطمانتهم الى أن الحارس نائم ومعه رفيق
له (أم تراهما حشاشين اختارا هذا المكان الامين والمجاني مثلنا ؟) ...
فوجيء سرغون وكريم وجاد بالمقبرة ، لكنهم بعد لحظات من المسير
فيها سمعت تنهدات راحة تند عنهم ... الى التابوت ... كشفوه ...
تعددت ... اعادوا الغطاء فوق ... بدأ الباهي وابو رعد انشودتهما وكانا
ينطلقان بلغة لا انا اعرفها ولا هما ... ورافتهما بقية الرفاق بعفوية مدهشة !
ها هي ظلمة التابوت تحوطني ... السكينة والسلام والصمت والعودة
الى الرحم الاصلي الخنون ... عبر الحشب السميك للتابوت تأبني أصواتهم
اغنية حب بدائية خافتة لقبلية تبكي مصرع محاربا العتيق ... تهدأ النار
المشتعلة في جرحي الكاذب الاندمال ...

يوم سقطت الضفة الغربية ، وعرفت انني لن ارى بعد اليوم اطلال
داري ومدرستي وقبر أُمي التهب النار في جرحي العتيق ... ظننت أنني
أصبت بحرق جديد ، كشفت الثياب عن صدري وكان الجلد المندمل
يبدو من الخارج مطفاً ... وأدركت أن النار لم تنطفئ قط منذ التهب في
المرة الاولى عام ١٩٦٥ . وكل ما في الامر أنها انتقلت الى ما تحت الجلد
وظلت هناك .. لسبب اجهله تكف النار عن تعذيبي وانا ميتة هكذا في
التابوت ... هذه الجلطة المسجاة تحمي داخل التابوت بدأت أشعر بصدقة
تتعقد بيننا ... صداقة غامضة وبلا كلمات كصدقة التوأم داخل الرحم ...
كم هو رائع ونقي السيد الموت ! بذراعه السرية يطفىء الحروق كلها ،
وينقي الاحزان والذكريات الى أرض النسيان الأبدي ... احتضني اياها

السيد العظيم ... خلني ... امتلكني كمشيق مطلق ... امتلكني حتى القتل ..
ولكنهم كشفوا عني غطاء التابوت فجأة ... كم هو مفرح ان تنتهي
المسرحية ، حين تصير المسرحية الليلية حياتنا ، ويصير ما تبقى من أيامنا
مسرحية مهزوزة الادوار يتلو كل فيها سطوراً ليست له ولا يدري لماذا
يقرأها ولا يفهمها .. والجمهور يصفق على أية حال ..

بصرخ بي جاد : هل أنت بخير يا نوف ؟ ..

ومن منا بخير ؟ ..

أغادر التابوت .. وتبدأ الجولة بين القبور ..

والقبور كالناس .. بعضها كبير .. بعضها متعجرف .. بعضها صغير
ومنزو .. بعضها يتصدر المكان ويتعزل .. وشاهدت قبراً ترابياً فقيراً ..
تحسست ترابه في الظلام .. كان هنالك شيء ما مدفون في احشائه ...
نشرت التراب قليلاً فوجدت صلياً نحاسياً صدئاً .. اعطيته للباهي وطلبت
منه ان يحتفظ به تذكراً لليالينا الوثنية .. سرغون بدأ يقفز من قبر الى
آخر كطفل .. جاد احتضن شاهدة أحد القبور ونام فوقه .. ابو رعد
دخل الهيكل . الباهي وانا اقتربنا من المدفن الخاص - القبو ، نحاول الدخول
اليه وكان مقفلاً كالليلة الماضية ، ومع ذلك خيل الينا ان اصواتاً تنبعث
من الداخل .. ولم نجروء على أن نقول ذلك لبقية الرفاق كي لا يسخروا منا ..
وليلة بعد ليلة بعد ليلة كنا نقسم اننا لن نعود الى المقبرة .. وكنا كل
ليلة نضيق بكل ما حولنا من مقابر فكرية وسياسية ومسرحيات وطنية
ومزايدات على الهزيمة التي صار اسمها الرسمي نكسة ، وكنا لا نملك
الا ان نذهب بعد منتصف الليل الى المقبرة ..

ويوماً بعد يوم زاد رفاق المقبرة .. وتكاثروا .. والباهي بدل مكان
اقامته وانتقل الى فندق رخيص وبدأ مرحلة تقشف شديدة كي يطيل
اقامته قرب المقبرة ما أمكن ..

بالنسبة الي كان أهم ما في طقوس المقبرة ان تتعدد داخل التابوت ..

كان ذلك علاجي الوحيد .. وكففت عن التردد على ذلك الصيدلي الفقير الذي كان يحقني سراً بأبواب المورفين داخل الوريد ليخفف عني آلام الحرق الذي لا يعترف الطب بالامه ..

على بناء ملاصق للصيدلية لافتة تقول (أيتها المتعبون تعالوا انا وأنا أريحكم) كنت أمر بها واتجاوزها لادخل الى الصيدلية .. مرة صدقت اللافتة ودخلت . استقبلني عانس كهلة وزودني بمجموعة من الكتب وطلبت مني ان أعود مساء للاستماع الى محاضرة .. وعدت مساء وحقق رجلا - يبدو انه مصاب بالتخمة وعسر الهضم - الحضور بحقنة تخدير دينية سرت في أوصال الحاضرين وبدأ أن نفسهم هدأت .. هربت من المكان الى الصيدلية الملاصقة فأنا شخصياً افضل الافيون الآخر .. منذ اكتشفت المقبرة كففت عن زيارتي للياية الى الصيدلية وبدأت الثقب الزرق في شرايبي تشفى) ..

ما زلت جالسة في حضن الارض والشجرة الكبيرة تخفني بظلمها ... الحارس - ام تراه يأنس بالمقبرة مثلي - يحمل زجاجة العرق ويدور بها ... ألحظ انه يتجنب الزوايا المظلمة .. اذن هو مرغم على البقاء هنا ... تراه بلا مأوى ؟ ... المطر كف عن المطول .. رائحة التراب نفوح منعشة ونديّة وبريئة كضحكاتنا في المقبرة ايام انتقلت سهراتنا من المقهى اليها ...

(جلس سرغون قرب احد القبور وقال انه جائع .. قلت له لماذا لا تأكل الحشائش والنباتات النامية على القبور وانت الذي تنادي في اشعارك بأن يكون الانسان نباتياً ؟ ..

وبكل بساطة بدأ يقطف نباتاً عن أحد القبور ويلتهمه .. قلت له : ربما كانت جذور هذه النبتة داخل جمجمة (الفقيد) المدفون هنا ، ولعل افكاره المسممة ملأت النبتة بالسّم .. وضحكنا ..

وبعد قليل كففتنا عن الضحك حين بدأ سرغون يتلوى ألماً .. وذهبنا

به الى المستشفى .. وقال لنا الطبيب انه مصاب بالتسمم وبحاجة الى غسيل
معدة ..

لقد اعتبرنا الامر نكتة حزيرية مدهشة !
بلى ... كانت لبالينا لا تخلو من الضحك الباكي ... كأننا كنا نرتد الى
طفولتنا الراحلة مع الزمن ، ونصير حفنة من الاولاد الاشقياء الذين هربوا
من مسؤولياتهم ليلعبوا في المقبرة ...
(أصر نادر على أن يرافقنا ، بعد ان انتشر أمر سهراتنا في المقبرة ..
كان شاعراً يتحدث قصائده عن الوغى والموت وصهيل الخيول في المعارك
ورائحة الدماء .. كان عترة المقهى وكنا نلقبه بعنتر ..
ما كدنا نصل الى مدخل المقبرة ونسير فيها خطوات حتى تركنا
وانطلق هارباً ..

في اليوم التالي غيرته بعض الرفاق ببجته . فنفى ذلك وقال انه تذكر
موعداً هاماً ولذا تركنا ومضى . وتعداه ابو رعد بأن يذهب وحده الى
المقبرة في منتصف الليل ويدق مسماراً في الشجرة الكبيرة الملاصقة للقبر
الخامس الى اليمين بعد المدخل .. وقبل عنتر التحدي .. وجلب ابو رعد
مطرقة ومسماراً دهن طرفه بطلاء اظافر اخته الاحمر واعطيناه اياه
وتركناه يمضي .. وطلبنا من « ابو رعد » ان يتعقبه ..

وبعد نصف ساعة عاد ابو رعد وهو مصاب بنوبة ضحك هستيرية ..
قال انه لحق بعنتر فوجده داخل المقبرة امام الشجرة يصرخ : خلصوني
من الارواح .. قولوا لها ان تركني .. لقد قيدني الى الشجرة ...
وبدا له ان عترة مقيد فعلاً الى الشجرة لا يستطيع منها فكاً ...
وتقدم منه فوجده قد دق المسمار في الشجرة ، وفي غمرة رعبه دق مع
المسمار طرف سترته ! ... ولكن عترة نفى الحكاية ... وقال ان ابو
رعد يشنع عليه .. المهم اننا أضعنا ليلة ، وتلهينا عن المأساة ...
ولكن الله لم يطل ... وها انا وحدي .. لقد مضى رفاق المقبرة

جميعاً وبقيت وحدي اجيء كل ليلة استبدل فراشي بالتابوت لانام ملء جفوني ثم انسل من المقبرة مع الفجر هادئة لاذهب الى عملي ... اجل .. ذهب رفاق المقبرة .. هربوا ... بعضهم قدم التنازلات المطلوبة وأعاد انضمامه الى المقبرة الكبرى في الخارج .. وبعضهم استطاع ان يستعيد توازنه بعد محرقة الهزيمة ويخرج منها كطائر الفينيق المتجدد ابدأ بعد احتراقه ... وبعضهم خاف امام لعبة الموت ... سرغون سافر الى اميركا ... جاد اضطر الى قبول عمل ليبي في الكازينو لانه جائع ... عنتره تم تعيينه مسؤولاً كبيراً في الاعلام ... ابو رعد سُمّ المسرحية كما يقول لكنه استبدل المقبرة بالحمامرة ، وبراقصة اجنبية في الكازينو تعيله ... حتى الباهي قرر الرحيل منذ شهر وكل ليلة حينما يجيء يفاجئني بأنه لم يرحل بعد ..

(منذ شهر كانت ليلة مقمرة من ليالي آب المسحورة ... لم يأت أحد من رفاق المقبرة ... ذهبت وحدي والباهي وكانت الثانية عشرة تماماً ... افتقدنا ليلتها الحارس الذي تغيب .. دخلنا الى المقبرة ورغم اني كنت قد حفظت كل معالمها ، واستطيع السير فيها مغمضة العينين الا اني تعثرت وسقطت من قدمي فردة حداثي ... قال لي : يا سندريللا الخزينة ... يا صغيرتي ... يا سندريللا الهزيمة ... وضممني اليه ... ثم اقلنتني فجأة . ركضت الى التابوت ... دوماً انا في هفوة للتمدد داخله ... لا ادري لماذا احسست بحاجة للعودة الى رحم الموت عارية ، كالحفظة قلذب في الى الحياة ... نجى الى هذه الدنيا عراة ، فلماذا لا نركض عنها كما جئنا ؟ .. وبدأت اخلع ثيابي كلها بصمت ثم تمددت داخل التابوت عارية .. ومددت يدي الى الباهي مشيرة اليه كي ينام معي داخله ...

لم يفعل ... حملني .. مددني فوق قبر رخامي كبير ، وأحسستني في ضوء القمر مثل ذبيحة تقدم لاله النسيان ... قدمنا له كل ما نعرفه وكل ما في جسدنا من طاقة على الابحار الى عوالم النسيان المطلق ... وكنت كلما تذكرت أن في القبر تحي رجلاً لن يتحرك بعد الآن ازداد تمسكاً

بالرجل الآخر المليء بالحياة والحركة ، والذي يغطي كما السماء تغطي الشواطئ النائية وتطبق عليها ليلاً ... وفي غمرة ابحارنا بقارب الجسد الى ارض النسيان سمعنا تلك المهممات الليلية ووقع خطى رجال حذرين ، لكننا بعد ان نهضنا وارتدينا ثيابنا لم نجد أحداً ...

قال لي الباهي مرتاعاً : انت جنبية الموت وكاهنة النسيان ... تخيفيني ...
— لماذا ؟ ...

— انك مثل عرائس البحر ، تغني للملاحين المتعبين الوحيدون وتقودينهم الى حتفهم في مقابر مغاور أعماق البحار ... واخافك ...
— لماذا ؟

— اخاف ان احاول الهرب ذات يوم فاجدني مدقوقاً الى جانبك في التابوت بمسمار كمسمار عنبرة الذي دق به ذاته دون ان يدري ...
لا اريد ذلك ...
— لماذا ؟

— لانني ما ازال اؤمن بأن شيئاً ما سينبت من المقبرة الحزيرية الكبيرة ، ولانك صنعت لنفسك قارباً من اليأس وانزلته في نهر الموت وها انت تلوحين لنا بالوداع .. اريد ان انزل من قاربك ...
— لماذا ؟

— لانه لا يمكن ان يكون هذا كل شيء .. لقد حاولت فك عقدة الصخرة التي تشدك الى اعماق مياه اليأس وها انا اكاد اغرق معك ...
لا اريد ...

وكان جاداً في رغبته بالنزول من قاربي ، فقد هتف الي بعد ساعات الى مقر عملي يبلغني انه حزم حقائبه وانه في طريقه الى المطار .
لم احزن . فقط التهاب جرحي وتأججت ناره تحت الجلد ...
لكنني ليلاً ذهبت الى المقبرة لاطفيء النار في التابوت ... وفي الثانية ليلاً جاءني ثملاً ممزقاً ولم يرحل ... قال انه سيرحل في الغد ... وجاء

الغد ولم يرحل ... كل صباح يودعني ، وكل ليلة يلاقيني الى فراشي
في تابوتي بالمقبرة

تراه يحضر الليلة ؟... اليوم حينما هتف الي صباحاً ليودعني (كعادته !)
كان في صوته شيء جديد ... نبرة جديدة اخافتني . اني انتظر منتصف
الليل واطافري تحفر في التراب كن يدفن صبره الذي نقد ونفق منذ زمن
طويل ... اسمعني اهمس كساحرة شريرة : سيحيي . لقد علق بصنارة
جسدي وسيحيي ...

حارس المقبرة (أو ضيفها الآخر) يسمع همسي ويتلفت حوله في هلع
ثم يذكر اسماء اوليائه وقديسيه بصوت عال ... ويعود الى زجاجة عرقه
ليعب منها ... هيا ... ثم ... ارجوك ان تنام ... فثيابي المبتلة ملأت عظامي
بالبرد ... وعما قريب لن أتمالك نفسي من السعال وسأخيفك أكثر ... اريد
ان اخلع ثيابي واتركها تجف قرب التابوت وارقد في داخله لانام باكرأ
الليلة لانني متعبة .. اجل . هكذا . تمدد على الارض ولف سيجارة حشيشك ..
عظيم .. لن يطول انتظاري اذن وستنام بعد قليل ...

الباهي ، تراه ذهب ابداً ابداً ؟.. وهل من الضروري ان نفقد الاشياء
لنعي مدى تعلقنا بها ؟..

اذا رحل ، سيعود الليل وحشاً ، والنهار ملحاً .. ها انا انذكره كما هو
خارج اطار عالمي ومقبرتي ... انه صامت ، وجادٌ ، وعاشق لعمله ...
تذكرت معرضه ، تواضعه ورؤياه الثاقبة .. لو لم اكن امرأة ميتة للحقت
به الى آخر الارض ... ولكن ..

ارفع رأسي وانا اسمع صرير باب مدخل المدفن تحت الارض ووقع
خطي تهبط على الدرج ... لا ريب في اني واهمة .. ها قد نام الحارس
اخيراً ... يا له من انتظار طويل طويل ... لقد هاجمتني عذاباتي كلها طيلة
ساعات الانتظار هذه ، وانطلقت خفافيش ذكرياتي من دهليزها ...
فلأذهب لامتدد في التابوت ، ولأمثل مسرحية الموت وحدي بلا متفرجين

ولا مصنفين ، وبدون مشاركة بقية الممثلين ..
ها انا اخيراً امام التابوت . الباهي لم يجيء . شيء في داخلي يقول لي
انه لن يجيء ...

اسحب عن التابوت غطاءه بكل هدوء ... اتسلقه كما اتسلق فراشي ..
الظلمة في هذا الركن دامية ، لكنني صرت كالاعمى السذي يعرف
طريقه جيداً في منزله ... اتمدد داخل التابوت واحس بشيء صلب تحتي
كأنه حقيبة ...

انفص من جديد ... استخرجها وامضي بها الى الهيكل . في النور المنبعث
من الكوة المستديرة كالشمس السرية الزرقاء لهذه المملكة افتح الحقيبة وأفاجأ
ببعض الرسوم واللوحات ... اميز فيها فوراً اسلوب الباهي في الرسم ...
أتأملها واحدة بعد الاخرى واحاول ان افهم ماذا يريد الباهي ان يقول لي
بوداعه ... واذا كان معرضه الذي افتتح يوم الخامس من حزيران يحمل
نبوءة بالهزيمة ، فما هي نبوءته الجديدة ! ...

اللوحات تمثل المقبرة ... مقبرة شاسعة لا حدود لها تمتد على طول
قارتين .. ها هي امرأة جذورها في المقبرة ورأسها في الغمام ... جسدها من
رماد ورأسها من فولاذ ... لوحة اخرى ... الموت جذع في الارض ، ومنه
ينبت ظل منتصب يحلال ومهابة وشراسة

يخيل الي انني فهمت ...

حسناً حسناً فهمت ما يريد ان يقول لكنني لا اصدق ... ومع ذلك بي
رغبة للخروج الى النور ، الى مكان استطيع ان اأمل رسائله - اللوحات
جيداً ، وافهم نبوءته انا المؤمنة به ...

احمل الحقيبة وامضي بها وانا اخرج من المقبرة واشعر انني قد لا اعود
اليها ثانية .. على اقدامي ...

أمر بالمدفن تحت الارض ، المقفل الباب ابداً ، واسمع تحت الارض
اصوات رجال .. لا يمكن ان اكون حاملة او واهمة .. اني واثقة من سماعي

لاصوات رجال ...

أحاول فتح الباب الحديدي الصدى لكنني ألحظ ان سلسلة قد دارت
حول اسياخه وثبت بها قفل بدا لي في الظلمة انه جديد ... تأملت مدخل
الدرج الهابط الى المدفن وخيل الي أنني المح ظلال مشاعل او شموع في
الداخل ... انصت وقد ارهف هذا الخوف المستمر في الظلمة سمعي ...
تناهت الي اصداء عبارات متقطعة مثل : عملنا السري .. التحرير .. الارض ..
الفداء ... التنظيم ... الرفاق ... العنف .. العملاء ...

ثم تفجر المطر من جديد ، ولم اعد اسمع سوى مهممات غير مفهومة
مثل نغمة نائية لكنني وعيت ايقاعها المليء بالقوة والعنف والشراسة ...
وبدأت ابكي ...

كيف افتح الباب بيني وبينهم ...
صرت ابكي ...

هل يمكن ان يدور هذا حقاً ؟
هل تحققت نبوءة الباهي الثانية بهذا السرعة ؟ لا اصدق ... لا اصدق ...
يجب ان اراهم ...

الباب موصلد ... والسماء عادت تمطر يجنون ... يجب ان اتأكد على
الاقبل من وجودهم ... لا اؤمن بالمعجزات والنبوءات وحدها .. رغم
الاصوات الضاجّة بالحياة المقبلة من قاع المدفن والاشباح الداخلين
والخارجين الذين كنا نلمحهم احياناً ونظن أنفسنا واهمين ... هل يمكن
ان يكونوا هنا طوال الصيف تحت جذور القبور والموت يخططون
للحياة بينما نحن نقفز بين القبور ونتخلى عن مآسينا ونركض بين المقاهي ...
هل استعادوا وعيهم بهذه السرعة .. هل اصدق ؟ ... ام تراني أحلم تحت
سطوة لوحات الباهي ونبوءته المضيفة ؟ ...

انها تمطر يجنون ... لماذا لا اتأكد من وجودهم عبر آثار اقدمهم ؟
كانت الارض موحلة لما دخلوا ، ولا ريب في انهم خلفوا آثار اقدمهم على

التراب ان كانوا قد دخلوا حقاً ...
اركض الى الممر ... أتأمل التراب بحثاً عن آثار .. أجد المطر قد غسل
كل شيء وعاد الوحل كما كان متكئاً وسرياً مثل صفائح آجر عليها نقوش
بلغة مجهولة ...
اغادر المقبرة وانا اشد على حقيبة اللوحات ... واحس بأن النار المشتعلة
أبدأ تحت قناع جلدي المتدمل قد هدأت .. واستنشق الهواء البحري بملء
صدري ولا اشم تلك الرائحة .
غداً لن أنام في التابوت ...

الساعة ١٠،١٠ ليلة ١١-١٠-١٩٧٢

نشرت هذه القصة للمرة الاولى تحت عنوان :

« رفاق المقبرة »

جريمة شرف

ليس من عادته ان يتضايق اذا تجاوزه أحد بسيارته ، لكنه اليوم كان يثور لذلك ، ويفتل شاريه ، ويسابق السيارات كلها .. بل انه سمح لنفسه بتجاوزات اخرى ، فقد أدار زر المدياع وهو أمر لم يسبق له ان تجرأ عليه منذ عمل سائقاً لدى نظوم بك الحسابي .. لكنه بينما كان يتنازع ، لسيدته (الجاتوه) ، الخاص بالريجيم ، الذي تأكله بدلاً من الخبز ، سمع ان هناك تحركات اسرائيلية عدوانية على قرى الجنوب ، وعلى قرينته عيترون بالذات .. وصل الى القصر ، واعطى (الجاتوه) للخادمة التي قالت له بسرعة :

« الست تريدك . اصعد الى غرفة نومها » ..

صار يعرف الطريق جيداً ، « فالست » دوماً في غرفة نومها ، بالضبط في فراشها ...

بسمل وحوقل ولعن الشيطان وخزاه ، وتسلق الدرج الرخامي الطويل ... على طرفي الدرج في قمته تمثال رخامي لامرأة عارية تماماً (لماذا يتركونها عارية هكذا ؟ انا مستعد لشراء ثوب لها من رابتي ، وفي الليل سأستل وأدثرها به فهي تشبه زوجتي تغريد أم علي ... كأنهم نصبوا هذا التمثال هنا خصيصاً لاغاظتي ... كل ما في هذا القصر كأنه وجد أصلاً لاغاظتي) ...

ها هو امام الباب المبطن بالمخمل الارجواني ...

يدق الباب دون ان يلدي ان قرعاته لن تسمع ، فالغرفة عازلة للصوت . هذه « الحرمة » دوماً مطروحة على سريها مثل بدوية اجهضت لثو) .. يدخل ...

ها هي الست «فيردالونا» في الفراش المبطن بالمخمل ، المغطى «بالساتان» الوردى ... الجدران أيضاً وردية ... والسقف ينسدل منه الساتان بصورة خيمة ... خيمة من الساتان ... ها ... (ماذا يعرفون عن الخيام ؟ ... كنا ننصب الخيمة وسط الحقل ، وننتشر فيه انا واولادي السبعة نقطف التيج ... مرة عدت الى الخيمة لاحضر لهم بعض الماء ... ابني علي كان قد تمدد ليستريح قليلاً ، وبين الفراش المملود على الارض وقماشه الخيمة كانت « أم اربع واربعين » ضخمة ... أمسكت بها بين أصابعي وفركتها ... هاهي « أم اربع واربعين سنة » مدام «فيردالونا» ممددة امامي في الفراش ، وشاربي يرتجف امامها ، ولا اجروء على ان امد يدي فأفركها بعضاً من اللحم المعجون بالدم والشعر الاصطناعي والرموش المستعارة وانتهي من أوامرها) ...
الستائر مسدلة كأن الوقت ما زال ليلاً ... (اشتهي ان اقول لها مرة صباح الخير ولا اجروء. وقتها دوماً ليل).

لو دخلت الى الغرفة ذباباً لتحركت المدام «فيردالونا» في فراشها أكثر مما فعلت حين دخل ابو علي ... ظلت كما هي ... مدة في ثوب نوم بنفسجي شفاف ، انكشف بعضه عن ساقين بيضاوين زرقاوين كما الجثث بعد ساعة من الوفاة ... مترهلتين رغم اصابع (الماصور) توتو الذي يحضر كل يوم ويفرس اصابعه في لحمها العتيق كعجينة بلا خميرة ، وعبثاً يصلح (المساج) والتدليك ما أفسد الدهر ... ويتظاهر خلف نظارته السوداءين بأنه اعمى ... ينجيء خلفهما كما ينجيء خلف امم الدلع (توتو) كي لا يعرفوا انه هو توفيق ابن المشلول مصطفي جاسر ، الذي أصيب برصاصة منذ ٢٥ سنة استقرت في عموده الفقري بينما كان ينادي : «يا مستعمر اطلع بره» ... ومن يومها خرج الحكم الاجنبي وبدأ حكم الجوع في بيتهم بعد ان فقد رب الاسرة قدرته على العمل ونسيه الجميع في غمرة اعياد الاستقلال .
كل ما فعلته المدام «فيردالونا» حين دمدم ابو علي (احم احم) للمرة

الخامسة ، أنها فتحت جفنيها كمن عاد من اغماء طويلة وتأملت به بعينين دامعتين .. وعادت تنثني فوق الجسد الذي احتضنته وتنوح بعربية مكسرة : يا خبيبي يا ببوش ... وتطلعت الى ابو علي بعينين ساح كحلهما وسال في أودية التجاعيد ، وبصوت ملهوف ناحت ثكلى : انه مريض (مالاد) ... حرام ... واليلة الحفلة ... بعد قليل يجيء الحلاق والمانيكورست ... وهو مريض ... يا خبيبي يا ببوش ...

واضطر ابو علي الى ان يقول لها : سلامة قلبه ... لكنه أحس بشاربيه ينكسان الى الاسفل مثل الرايات المهزومة (شواربك يا بو علي لو وقف عليها الصقر لما اهتزت ... كان ذلك ايام زمان ... آه) ... سلامته يا مدام ، سلامة قلبه ياست !

وهنا لاحظ السيد « ببوش » دخول ابو علي ، وانتفض من بين يدي « فيردالونا » وبدأ يعوي بكل شراسة ... ذلك الكلب اللثيم الفنوج .. لماذا كره ابو علي من أول نظرة ... ابو علي يعرف انه كرهه من اول نظرة (في ضيقي عيترون كل كلاب القرية نحني ... وتميزني ... انها هناك خشنة ، صوتها كصوت الذئاب ، وفيها رجولة ... فحلة وشجاعة وتهز بذنبها بمودة وبلا تزلف ... كل شيء في هذه القبيلة مختلف ... حتى الكلاب ... لا البشر بشر ولا الكلاب كلاب) منذ النظرة الاولى الى ببوش احس بو علي ان وجود احدهما يتهدد وجود الآخر ... وهو لن ينسى ذلك اليوم أبداً ... (هبط نظوم بك الحسابوي من سيارته الكاديلاك امبيريال التي اقودها امام المدخل الرئيسي للقصر ... و اشار الى الباب الخلفي في الحديقة وقال لي : اذهب يا بو علي الى المطبخ وكل ، وبعد الغداء اقدمك لزوجتي ، مدام فيردالونا ... كنت جائعاً ... لم اتناول لقمة منذ وصلت من عيترون ... أي منذ ايام ثلاثة صعبة ... كنت متخماً بالقهر والقهر والقهر ... أجل ! القهر هو الكلمة ..

دخلت من باب المطبخ ودون ان يلتفت الى الطباخ الفرنسي أشار

الى صحن الطعام على المنضدة ... كان كل شيء منظماً ، ولم يقل لي احد
تفضل أو « عوافي » أو « صحتين » ولكنني كنت جائعاً مثل ثعلب
الكروم ...

وهجمت على صحنني ، وفجأة سمعت صوت زعجرة ... ورأيت ...
رأيت ببوش ...

كان يرتدي قميصاً من الحرير مرقطاً بالابيض والاحمر له « كشاكش
ودانيل » مثل القستان الذي شاهدت ابنتي « خضرا » ترتديه وهجم عليها
يومئذ شقيقها علي ومزقه لانه فاضح الالوان ومثل ثياب بنات بيروت ...
زجر ببوش حينما شاهدني أدفع الى حلقي بأول لقمة ... كان بقية الخدم
من ايطاليين وفرنسيين يأكلون ... ولم يضايق الكلب ذلك ... لماذا ضايقته
لقمتي ؟ ... ثم انه كان امامه صحن هائل مليء باللحم ، فلماذا تضايقه
لقيمائي المغسة بالعرق الذي بدأ يهطل من جبيني داخل الصحن بينما
بدأ بقية الخدم بالضحك ؟ ...

التقت نظراتنا ... كانت هنالك شريطة وردية معقودة على ذنبه ...
وكان في عينيه ما يشبه الخوف مني ... والحقه ... كثير من الحقه ...
كثير من الحقه كذلك الذي أطل من وجوه الجنود الاسرائيليين وهم
يزرعون المتحجرات في جلور بيتي ... الحقه والخوف ... كان ناعماً ...
تفوح من شعره اللامع المصطف رائحة العطر ... وكانت يداي مخشنتين
وجلداهما قاسياً كجلد سلحفاة عمرها الف عام ، وأظافري طويلة ومعدبة
لا كظافره التي لاحظت بذهول انها مدهونة بطلاء احمر ... وكان بيننا
عداء سري ...

وبدأ يعوي وكف عن الأكل ...

وتقلصت اصابعي وأظافري ، وصارت لقمتي معجونة بالملح والكلس .
وظل يعوي ، وغصصت باللحمة ... ثم دخلت امرأة اربعينية ، فنهض
الخدم جميعاً وكفوا عن الاكل ومثلهم فعلت ، وركض اليها الكلب اللئيم

وكانه يشكوني اليها وهي تحتضنه وتحمله بلغة اجنبية لم افهمها ... ثم لحق بها البيك وطلب منها العودة الى الطعام لان ضيوفه مهمون والصفقة يجب ان تتم ، ومن الضروري ارضاؤهم ... وخرجت « الست » غاضبة بعد ان رمقتني بنظرات سامة احسستها مثل كأس من الديمول تنصب في صحنى ... مثل الديمول الذي شربته (حكيمة) ابنة جاري لان والدها رفض ان يزوجها شاباً من الفدائيين ما دام عاجزاً عن دفع مهرها بقررة وثلاثة ليران ...

وفلتت شاربي ، وصرت اردد بصمت : انا ابو علي الضرغام ... انا ابو علي الضرغام ... وهذا كلب ابن كلب ابن كلبة اجنبية ... وظل طعم الديمول في الطعام ... ونهضت وأنا أحس بأن فتل شاربي لم يعد يجدي ... وخرجت الى الحديقة ودخنت سيجارة لف ، لففت داخلها بقايا آخر محصول من دخان أرضي ، وبدأت ابكي كالنساء . عيب) ..

ازداد عواء بيوش حينما شاهد ابو علي الضرغام يقف بجذائه القدر فوق السجادة (الموكيت) البيضاء ذات الريش الطويل في غرفة النوم ذات الجدران المخملية الارجوانية كعلب المجوهرات ...

وقالت السيدة فيردالونا : الليلة حفلة انتخاب ملك جمال الكلاب ... وكلبي طبعاً أجمل كلب . ولكنه كما ترى مريض ... مريض ... خذه الى دكتور ه مسيو فراشيخ ... وحين أنتهي من (المساج) سألحق بكما ... حمل الكلب اللثيم كما كان يحمل الكلاب في ضيعته ... لكن مدام فيردالونا أنبتته بنظرة شرسة ... ففهم ... واحتضنه كما يحتضن الاطفال المرضى ، فخرج به من الغرفة وهبط الدرج وقد سقط شارباه الى الاسفل (بين ذراعي احتضنت ابنتي هكذا . كنا نقطف التبغ ... وكان الليل منعشاً والسماء تضيء كأول فجر بعد الطوفان ... حدث الامر بسرعة ... اضواء كشافة ورصاص ، زخات رصاص ثم انطفأ كل شيء الا صراخ ابنتي

« خضراء » ... ركضت إليها ، كانت تنزف مثل طائر فادر صرعه الصيادون للتو ... حملتها وركضت بها الى القرية ... خاف سائق التاكسي الوحيد في القرية وقال ان الاسرائيليين اعتادوا مع كل غارة ان يطيروا فوق الطرقات ايضاً لقدف السيارات بقنابل محرقة ... فذكرته بالنخوة وبأيام الشباب ، ايام كنا نذهب الى بيروت لسهر الليالي ... ذكرته بانه كان رفيقي يوم التقيت زوجتي الاولى الساحرة أم علي وكان اسمها في الملهى تغريد ... وكيف انه كان شاهد زواجنا ... وكيف وقف معي وشجعني على اختطافها من البيك الذي كان يستغلها والذي نجهل اسمه ... وقبل دعدس حدرج السائق وحملني وابني الى مستشفى صيدا ...

ابني علي لم يحزن من أجلها ... قال انها تستحق الرصاصات الثلاث في بطنها ، فهي قد تكون حاملاً من جول صالح ، الفلسطيني الذي لم استطع ان أمنعه من الالتجاء الى بيتي - المنسوف - كلما شاء - قبل أن ينسف البيت - ... وقال ابني علي ابن تغريد اني احابي « الفدائية » لان زوجتي الثانية امثال فلسطينية من عكا وتربطها بجول قرابة بعيدة ... وعبثاً حاولت اقناعه بأن امثال امرأة طيبة وبنت حلال والا لما قبلت بأن تكني بأمر علي نسبة اليه ... وبأن أمه الست تغريد ، التي حميتها من البيك ، وتزوجت منها ، ونقلتها من حي الزيتون (والكاباريهات) بعد أول ليلة سهرت فيها هناك مع دعدس حدرج ... أمه كالت نصف مجنونة بعد الزواج ... ضاقت ببساتين النبع ، ورائحة الارض ، وملء الجرة من النبع ، وقررت أن تعود الى الزيتون ، وان تجهض الطفل - علي - الذي نبت في أحشائها ، والذي صارت تجد فيه المانع الوحيد بينها وبين العودة الى الزيتون والبيك والكسل ... ولم أقل له إنها بعد ان ولدته أصيبت بنوبات جنون كادت تقتله في واحدة منها لو لم أخلصه ، واركض به الى المختار اطلب العون ، وحين عدنا ، وجدناها تقفز بين بساتين النبع كتلة من اللحم المحروق والعويل ورائحة الكاز الذي سكبته على نفسها منتحرة ...

لم أقل له هذا كله حينما كان يصب نغمته على زوجتي الفلسطينية امثال
وقريبها جول ... لم أقل له شيئاً ... كنت اعتقد انه لا بد وان يفهم وحده
ذات يوم ... ثم انه ابني البكر ، علي ، حبيبي ، ولم انصور قط انه سيصب
حقده على شقيقته «خضراء» ، حتى وانا احملها بين ذراعي مثل عترة
مكسورة الساقين صرخ بي ، ولن انسى صوته : اتركها تموت ... اتركها
تموت هنا في الحقل ... سيرها الاسرايليون ويكفون عن هجماتهم فهم
بلا ريب يعرفون انها عشيقه جول القدائي ... وعويت به : ولكنهم لا
يريدون دمها ... يريدون الارض ... يريدون ارضي وبلي وبني ...
هذا هو شرني ... ونعم علي ابني وابن تغريد : المهم شرف البنت ا ..
تراه يحاول ان ينظم من أمه في شطص شقيقته ؟ .. أم تراها لعنة السماء
لذلك الزواج المشؤوم من تغريد ؟ .. تركته يكسر اقصان التبغ التي بخنيء
بينها في الظلام ، وظللت اركض « بخضراء » وهي تنزف بين ذراعي) ..
الكلب بين ذراعيه يتأمله ويتلمل بين ذراعيه كأنه يحتاج على خشونتهما ،
لكنه يركض به على السلم الى (الكاراج) ... يشعر برغبة هائلة في أن يعصره
بين قبضتيه حتى يخنقه ، لكنه يكبت هذه الرغبة حين يتذكر اولاده الكثر
الذين عاهد نفسه على ان يقيهم في المدرسة بأي ثمن ... بأي ثمن كي لا
يصيروا مثل ابنه البكر علي ... (ابني علي خرج من يدي ... يكره
العمل بالتبغ ويقول انه لا يشجع من جوع ويفضل العمل « بالحشيش »
والانجار به ... لقد كنت منذ البداية مشغولاً عنه بالشجار مع أمه تغريد ...
ويوم لحق بي استاذ القرية قائلاً ان ابني علي صبي ذكي ، ومن الضروري
بقاؤه في المدرسة ، ومن الضروري ان نتعاون على تعليمه ر ... و ...
كنت اقبل شاربي والهدف للخلاص من حديث الاستاذ كي الحق بتغريد
الى بيروت بعد أن كثرت زياراتها وقال لي صاحبي سائق التاكسي دعلس
حدرج انها عادت الى روية « البيك » الذي كان يتردد عليها ... وبين
تغريد والبيك ضاع علي ، ولم يتعلم حتى « فك الحرف » ... اولادي

من امثال يجب ان يتعلموا بأي ثمن) .. يرتقي درجات السلم الى عيادة الدكتور فراشيخ ... ببوش يعوي بين ذراعيه ... العيادة أنيقة ومزينة بالزهور وبصور لكلا ب سعيدة مرفهة ... كل شيء مغطى بالايض والطبيب يعقم يديه قبل ان يحتضن الكلب بكل حنان بينما تسارع ممرضة لتساعده

(لم يأت احد لمساعدتي حينما دخلت الى المستشفى الحكومي وطفلي « خضراء » تنزف بين ذراعي ... مر بنا الطبيب ورأها تنزف عبر ثيابها الممزقة الفقيرة وتركنا ننتظر ، وحينما حاولت الاحتجاج لدى الممرضة سألتني ان كنت أحمل اجرة المداواة والتطبيب ... ومددت « خضراء » على بلاط المستشفى القذر وركضت كالمجنون في ردهاتها) ...

بو علي يقف مذهولاً محزوناً ، يتأمل الممرضة تمسك ببوش برعاية . والطبيب يتحسس وينصت الى دقات قلبه ويفتح فمه ويتأمل لسانه واسنانه ثم يقول بصوت جاد وخطير كأنه يكشف صيغة قنبلة هيدروجينية جديدة : اعصاب ببوش متعبة ، وهنالك خوف من اصابته بأنيار عصبي ... الامر خطير ويجب ان أبلغ المدام لان اعصابه بحاجة الى المعالجة ... وأدار الدكتور فراشيخ ارقام هاتف مدام فريدالونا بأصابع شنجها الخطب الجلل ، وتجاوز معها بلغة لم يفهما بو علي وكان له وجه ضابط كبير يبلغ اركان حربه خطة هجوم سري صاعق ...

ثم التفت الى بو علي مؤنباً : — لماذا لم تخبرني بأن ببوش سيشارك في مباراة انتخاب اجمل كلب اليوم ! ...

ظل بو علي مذهولاً ... وتابع فراشيخ مؤنباً : كدت احقنه بعشرين ميلigram من مسكن الفاليوم ، وأفوت عليه المباراة بسبب سكوتك .. شيء فظيع هذا الاهمال ... بعد ابرة ويقول للممرضة ان تضع فيها ٥ ميلigram « فاليوم » ويردد بينما يحقنها للكلب بكل رعاية : شيء فظيع هذا الاهمال ... (الاهمال ! ظلت اركض في أروقة المستشفى وأصرخ بحثاً عن طبيب ... ووجدت نفسي من جديد امام ابنتي وقد صحت من جراحها وها هي

تثن المأ وتقول : ارجوكم ... خدروني او اقتلوني ... فهذا الالم لا يطاق ...
ساعات ظلت تبتهل كي تقتلها ولم تأت الابرة السحرية الا بعد ان وقعت
اوراقاً لا اعرف مضمونها وان كنت اعرف ان لها علاقة برهن ارضي
لدفع نفقات العلاج) ...

خفت عواء الكلب ، واسترخى بعد ان سرت الابرة في عروقه ...
قال الطبيب لبو علي بخشونة : يجب ان ينام نوماً عميقاً بلا ازعاج ... بعد
ساعات سيبصحو متعشاً ... الليلة بعد الحفل ، اذا بدا عليه الإرهاق ، قل
لست ان اتصل بي وسأحضر لاعطائه ابرة منومة ... قل لها ان صحته بخير
والحمد لله ، كل ما في الامر ان التدرجات لحفل الانتخاب قد أرهقت
أعصابه فيما يبدو ، فهو رقيق وحساس ... غداً نبدأ تطبيق معالجة أكثر
صرامة ... المهم ان يتناول اليوم طعاماً خفيفاً .. سلامته ...

ولما لاحظ ان بو علي يتأمل ما يدور مشدوهاً انتهره بخشونة : هل سمعت ؟
غداً صباحاً احضروه الي ... والآن عد به الى غرفته ...

حملة بو علي بين ذراعيه وخرج به من عيادة الطبيب ... (عشرة
اولاد ... لم احمل ايهم قط من ، أو ، الى عيادة الطبيب ... مات منهم
ثلاثة وبقي سبعة ... كانوا يمرضون ، يلهبون بالحمى ، تتحول بشرتهم
الناعمة الى كثبان من الرمل المحرق ... ثم يهملون فجأة ، ولكنني لم أملك
قط من النقود ما يجعلني اجرواً على ان اقرع باب الطبيب ، واجرة السيارة
اليه ، فأقرب طبيب يبعد عني مسيرة ايام .. كل ما أملكه لا يكفي لسد
رمق الافواه الجائعة المفتوحة التي تنتظرني كل مساء ... وحمل ايهم الى
الطبيب يعني موت ما تبقى منهم جوعاً ...)

رمى الكلب بخشونة في السيارة وانطلق بها الى القصر في « البرزة » .
فتح الكلب عينيه مؤنباً وعاد الى اغفائه . قتل بو علي شاريه لكنه
أحس بهما بين يديه مثل صوف خروف ميت ...
« يا بو علي ... الست تريدك في غرفتها » ...
صعد اليها .. مر بالتمثال نفسه فأشاح عنه بوجهه . الست فبردا لونا

غادرت فراشها ، وهذا معناه أنها مستغادر الدار ...

على رأسها باروكة شقراء (أجدر صعوبة في التعرف الى هذه المرأة كل مرة .. تخيفني الروموش التي تلصقها حول عينيها ... تذكرني بسيقان العناكب السود ... صحيح انني لا أخاف من الافاعي لكنني أكره العناكب) كانت قد فتحت خزانة بدا منها ما يكفي لفتح دكان بائع احذية ، وكانت تبدل حذاءها وتتوقف أمام المرأة ثم تعود لتبدله ... وهكذا ... وكعادتها لم تلتفت الى بو علي وانما تابعت حديثها مع حلاق بيوش الخالص الذي كان يعقد على ذنبه أشرطة حريرية ملونة بعد أن أنهى (الشامبو والسيشوار) وقالت : صحيح ان الحفلة هي لانتخاب اجمل كلب ، ولكن على صاحبته ان ترافقه في الاستعراض أمام لجنة المحكمين ... وأنت تعرف طبعاً أن لهيئة صاحب الكلب تأثيراً على لجنة التحكيم ...

وقال الكسندر الحلاق متملقاً : يكفي ظهورك ليحجب جمالك جمال كلاب الجميع !! ...

ولاحظ ان المجاملة لم تكن كما قصدها ، فبدل الموضوع قائلاً : صحيح انهم جاؤوا بلجنة تحكيم من انكلترا ؟.

وردت فريدالونا : أوه ... طبعاً طبعاً ... خبراء من أوروبا لرفع مستوى هذه الحفلات ... هذا ضروري ...

انتهى الكسندر من تثبيت عقد ثمين في رقبة الكلب وهمهم : طبعاً طبعاً ضروري ...

وتابعت فريدالونا : ثم أننا نقوم بهذه الحفلات من أجل الاعمال الخيرية والفقراء ... اننا نضحي من أجلهم (منذ جئت الى بيت هذه المرأة ، وأنا لا أسمعها تتحدث الا عن الاعمال الخيرية . تشتري الثياب وتتمايل بها في الحفلات وتقول إن ذلك لاجل الحفلات الخيرية ... تسيل الويسكي في حديقة القصر انهاراً ويتهاوى السكارى فوق حشائش الممرات وزهورها ، ثم يصدح الخطباء من الميكروفون وأسمعهم يقولون أشياء كثيرة لا أفهمها

ويتردد اسم الاعمال الخيرية كثيراً ... ويتردد اسم الفقراء ... ونحن الفقراء نجهل حتى أنهم يتاجرون بجمعنا لتخمتهم) .

الست « فيردالونا » تبدل حذاءها وهي تنابع : هذه هي الحفلة الخيرية العاشرة التي نقوم بها هذا العام لصالح الفقراء ... وكان آخرها حفل عرض أزياء ... وحفلة عشاء راقصة و « كوتيون » ويانصيب ... اننا نعمل كثيراً ... أوف ... تعب وارهاق من أجل الفقراء ...

(قال جول الصالح القدائي قريب زوجتي امثال : يا خضراء ، الجمعيات الخيرية في الفضل حالاتها هي صمام لامتنصاص نقمة الجماهير ... وبدت علينا جميعاً امارات عدم الفهم ... فقال وقد خص بكلماته ابنتي خضراء : الناس الذين كنت تشغلين عندهم كخادمة ، هل يطبخون بطنجرة « بريستو » ؟ ... أجل ؟ حسناً ... اذكرين صفارة الطنجرة وصمامها الذي يحول دون انفجارها كلما زاد الضغط داخلها بتفريغه للبخار المضغوط ؟ هذا ما نحاول أن تفعله بعض المؤسسات التي تسمي نفسها خيرية ... انها تعطي بعض الناس القليل كي لا يثوروا من أجل الكثير الذي يستحقونه ، أي انها تعطي البعض القليل كي تظل على ابتلاعها للكثير الذي هو أصلاً حق من حقوقهم ... ولما تأكد من اننا لم نفهم شيئاً قال باختصار : السيدات اللواتي مررن بكم اليوم دجالات جئن في نزهة الى الجنوب ومررن ببعض البيوت في طريقهن ... كل الوعود كاذبة ... هذه الارض ستضيع اذا لم نتعاون على انقاذها بالقوة ... لا الجمعيات الخيرية ستنتقد اولادكم ولا أحد سيتحرك ليدافع عن الارض اذا لم تفعلوا انتم ...

ابني عمر ، اكبر اولادي من امثال كان قد عاد لتوه من مدرسته البعيدة ودخل وسمع الحوار فقال لجول : كفالك مواعظ ... اذا لم تنسف هذه الدار لن يفهم أحد شيئاً ... ونسفت الدار ...

بعد انصراف سيدات الجمعية الخيرية من المقهى حيث أكلن وشربن
وعدن بسياراتهن الفاخرة الى بيروت ، جاء الجنود الاسرائيليون في غارة
من غاراتهم المعتادة ... أضأوا الانوار الكشافه . طلبوا بالمكبرات ان
يخرج جميع سكان القرية من بيوتهم . خرجنا .. لاحظت ان ابني خضراء
اختفت هي وجول ... عرفت انها ذهبت به ليختبئ في المغارة حيث
كانت تلعب أيام صغرها ... المغارة المسكونة بجنية طيبة كما يقولون ...
صارت المغارة اليوم ملجأ للقدائين ... وقفنا صفاً طويلاً . نادوا علي
باسمي . كيف عرفوه ؟ بالعربية كانوا يتحدثون وقد زاد ذلك في خوئي .
سألوني أين بيتي . أرشدتهم اليه بنظرات صامتة . كانوا يعرفونه فيما يبدو .
قال لي أحدهم : سنكافئك على ابوالك للارهابيين والمخربين ...
وبسرعة ... زرعوا بعض الرزم قرب أساس بيتي ومدوا بعض الاسلاك
وبعد دقائق كان البيت بأكمله يتطاير في الهواء ومعه تتطاير صور خمسين
عاماً من حياتي فيه ...

وكنت أنامله بذهول وصمت وقد سددت أذني عن ضجيج الانبيارات
وأغلقت عيني بشدة ... لا أدري متى فتحتهما ولكن حين فعلت كان
الجنود قد ذهبوا والصمت يحكم المكان الا من بعض الانتحاب الخافت
حولي . وبحث عن حدائي بين الانقاص ، فقد أدركت فجأة اني سأقضي
بقية عمري راکضاً في الارض بلا حذاء) .

* * *

يا بو علي ... بسرعة ... احمل ببوش ... تأخرنا ... حمل بو علي
ببوش ورغم ان وزنه لا يتجاوز كيلوات عدة الا أنه أحس بظهره ينوء
وهو يهبط به الدرج الى السيارة ... أمام باب القصر انضمت اليهما عائشة
زوجة جارهم محفوظ بك ، أو (شاشا) كما يلقبونها ... (اسم عائشة
جميل ... لماذا ينادونها شاشا ؟ أول بنت أحببتها كان اسمها عائشة ،
كانت ابنة المختار ومهرها خمس بقرات ... أذكر جيداً انني كنت

المحبا لبالي قطاف التبغ مع والدي ، وأحلم بها كلما طارت يعسوبة من تلك الحشرات المضيفة الجميلة ، وكلما قطفت نبتة تبغ رددت اسمها ... عائشة عائشة . وأقطف وأنا أكرر اسمها كما لو أنني ممسك بمسبحة من أصداف العالم كله ، ومع كل صدفة أكرر اسمها) ... في السيارة تمنى لو يطلبون اليه ادارة المذيع كي يستمع الى الاخبار ... انه قلق هذا اليوم ... خائف من احراق بقية المحصول ومن هجوم جديد على أراضيهم ... وعليه أن يدفع اقساط مدارس الاولاد (بعد أن هدموا دارى نصبت في موضعه خيمة ثم بيتاً من التلك وصرت لاجئاً في أرضي ... ذلك كله لا يهم . المهم ان يتابع الاولاد دراستهم ليفهموا كلام جول ومحمد ورفاقهم وليفهموا كل الكلام الذي لا أفهمه ... في الليل والنهار ، نتسلل الى أراضينا كالسارقين لنقطف بعضاً من جنى موسمنا ... في العام الماضي زرعنا الارض ، وشقوا طريقهم في أرضي وأخذوا قسماً منها ، والمحصول الذي زرعته حصده جاراتهم وجرافاتهم ... وما تبقى لنا من أرضنا صرنا نتسلل اليه لنسرق محصوله سرقة ... أشجار الزيتون ... والتين ... والتبغ ... أين أين أين ؟) ...

قالت له الست فيردالونا : راديو من فضلك ...

فرح ... كانت نشرة الاخبار في أولها ... قالت بملل : قلت لك اذاعة بيروت الاجنبية، نريد أن نسمع موسيقى ... برنامج (توب أوف ذي بوب) ... وتدفقت الموسيقى المسعورة في السيارة وبدأت شاشا تقول بصوت تجهد ان يغطي الموسيقى .. كلبك « الكاينش ماكسي » سيربح حتماً .. منافسه الوحيد هو - « اليوركشاير الرمادي » الذي تملكه لنا ... والكلب « البوكسر » الذي اشتراه رورو مسعود من لندن مؤخراً ... ومعه شهادات أصل وفصل ... ترد فيردالونا : لا أعتقد ذلك ... المنافس الوحيد لبوبوش هو البولندوغ البولندي الذي تملكه كوكيت عشور ... فصاحبته صديقة للانكليزي الذي جاؤوا به للجنة التحكيم ويقال ان بينهما علاقة منذ كانت هي عزباء وتدرس بلندن و ... و ...

واستحال حوارهما الى همس . وعرف بو علي انهما تنهشان (عرض)
صديقتها الحبيبة الست (كوكيت) ... وعاد صوت فيردالونا : ببوش
أجمل (بوجل) في العالم وسيكون الراح الوحيد ...
(اسرائيل هي الراح الوحيد . قالها عمر بينما كان الشجار بين ابنه
علي وجول خطيب شقيقته يتعالى ...

علي يرفض زواج شقيقته خضراء من جول . يقول لها إن الزواج من
فدائي معناه التمرل القريب والفقر والتشرد ... وجول يقول له : ستصبرون
جميعاً مشردين محكومين بالفداء وستصير زوجاتكم ارامل اذا لم تقفوا
معنا لنحارب معاً ... ابني علي يعتقد أن جول ورفاقه هم سبب مصائب
القرية وويلاتها ... امثال زوجتي صرخت به : قبل أن يبيء جول ورفاقه
كنا فقراء ونعساء ومهملين . لم يتبدل الشيء الكثير ، وانما عجل قدمهم
بالاحداث التي كانت محتومة ...

أخبرها ابني علي : أنت فلسطينية وابنتك مثلك وجول قريبكم ولكم
مصالح ...

وبدا يشتمها ... ومن عينيها أطلت نظرة من يريد أن يدافع عن نفسه ...
عرفت أنها ستذكره بأمة الراقصة تغريد ... لكنها سكنت اذ تدخل عمر
بين علي الذي هجم على أخته يريد ضربها ، وجول الذي وقف مدافعاً .
ليت عمر كان أكبر سناً .

ومضى جول وقال علي منتصراً : جول لا يريد حتى أن يتزوج . يريد
أن يتسلل بينات القرية مثل بقية رفاقه ... وكنت أكثر حزناً أو تعباً من
أن أرد ... أنا المسؤول ... لو سمعت كلام أستاذ القرية لما كان « علي »
هكذا ... لكنني كنت مشغولاً بمطاردة أمه في أزقة الزيتونة ... كانت
تهرب الى عشيقها البيك من وقت لآخر ... لو باحت لي مرة باسمه لقتلته ..
(ولكن ...)

— توقف يا بو علي ... ماذا دهالك ؟

ولاحظ انه تجاوز « نادي التكتكة » ولم يتوقف أمامه . صوت فيردالونا يتابع زجره : ماذا بك اليوم ... هل أنت مريض ؟
وبدأ الكلب بالنباح ... دوماً ينبع الكلب في وجهه حينما تؤذيه الست كأنه يشاركها تحقيره في وصلة من النباح ... يستنجد بو علي بشاريه ويفتلها ويخيل اليه أنهما صارا رماداً .

زحام امام باب النادي ... شرطة سير وسيارات فخمة ورجال وكلاب (دخل الاسرائيليون القرية معهم كلاب مخيفة شرسة فانتظمتنا في صف واحد ... كانت كلابهم كالذئاب الجائعة وكانت تمطر ، وبدأ اطفالنا بالبكاء وحاولت قتل شاري وشعرت للمرة الأولى بأنهما ماتا ، كنت فيما مضى أحس بهما شيئاً حياً ينبض وينتصب ، وشعرت أن شرايينهما تقطعت وأعصابهما قد شلت وأنهما انسدلا فوق فمي كجثث الطيور المصابة) ...
يا بو علي احمل ببوش . لا أريد له ان يتعب ... حذار من تخريب تصفيقة شعره ...

تتقدم الست فيردالونا الموكب مع شاشا وهو يسير خلفهما كأنه في جنازة هو المسيح فيها ، والممدد في تابوتها في آن واحد ... تتوقف أم ببوش (كما يحلو له أن يسميها حين يحدث زوجته امثال عنها) مع بعض الصديقات ، ويسمع احداهن تقول إن الاسرائيليين يتابعون اعتداءهم على قرى الجنوب والحالة خطيرة ...

ترد شاشا : ما لنا ولهم ؟ ... وتقول فيردالونا : المهم أننا نجبر ...
(ولكن هل أشجار زيتوني نجبر ؟ وأولادي ؟ وزوجتي ؟ وجول ورفاقه ؟ ... لا بد لي من الاعتراف بانني أحببتهم ... حينما يتحدثون يردون الروح لشاربي ... اذن يضربون الجنوب منذ الصباح ؟ ...
عيترون ، هل بقي فيها حجر على حجر ؟
وأطفالنا ؟

وأشجار الزيتون ، أراها تحترق في الحقل مثل رجال راكضين في

المدى وقد اشتعلت النار في شعرهم ورؤوسهم ...
وغداً مع الصباح سيأتي رجال يحملون آلات التصوير ، ورجال آخرون
ليصوروا أمام أطلال يوتنا كأنها خرائب بعلبك الاثرية ثم يختفي الجميع
ونبدأ نحن بمطاردة مجلس قيل إن اسمه « مجلس الجيوب » أو « مجلس
الجنوب » أو شيء من هذا القبيل ، ٢٥ ألف ليرة قيمة التعويض الذي
قبل اني استحقه ... والنتيجة ، ٣ آلاف ليرة دفعتها أقساطاً لاولادي لم
أقبض بعدها قرشاً ثم اسكنني (بيك) مجلس الجنوب نظوم افندي الحسباوي
وانخذ مني سائناً ...

والارض هناك تحترق ... والرجال يموتون ... والرجال هنا يرقصون ...
والكلاب تستحم وتترين وتأنق وتقام الحفلات على شرفها ... عجيب
أمر هذه المدينة ... يبدو انني لم أعد قادراً على فهم شيء مما يدور فيها ...
الليلة سأهرب من هنا ... سأعود إلى أرضي . سأسرق (الجفت) الذي
يستعملونه للزينة في مكتبة البيت وأذهب به لادافع عن أرضي ... سأقتل
كل من يقترب ... سأسرق البندقية - حتى البنادق يستعملونها في هذه
المدينة للزينة - .

سأسرق وسأقتل أول اسرائيلي يدوس أرضي .. لماذا لا أقتل ؟
ذات مرة كنت على استعداد لقتل البيك الذي كان ينفق على تغريد ...
لو عرفته لقتلته يومها ... لماذا أنا قادر على القتل من أجل تغريد وعاجز
عن القتل من أجل شجرة زيتون ؟ ...)
ممنوع الدخول ! ...

قالتها امرأة نصف عارية تقف على باب ملعب « نادي التكنكة » .
« الكلاب وأصحابها فقط يدخلون من هنا . الخدم من الناحية الاخرى » .
وهنا وضع السيد ببوش أرضاً وترك ام ببوش تمسك به وتختال الى
الداخل ، بينما توجه الى الطرف الآخر من الملعب حيث يقف سائقو السيارات
والخدم والحاشية والوصيفات ...

كان البشر في هذا الملعب يتقسمون الى قسمين متواجهين ...
الكلاب وأهلها من جهة ، والحاشية من جهة أخرى ... وبينهما أرض
الملعب ...

وكانت كل من الفئتين ترمق الاخرى بنظرات أقل ما فيها يدل على
العجز عن التفاهم رغم أنه من المفروض انهم جميعاً يعرفون لغة واحدة
مشتركة على الأقل ...

وفي أرض الملعب بدأ الاستعراض ...

كلاب ورجال ...

كلاب وسيدات ...

موسيقى ... ميكروفون ... أرقام ...

واخيراً الكلب الفائز

وبينما أحدهم يعلن على الميكروفون اسم ملك جمال الكلاب سمع
الجميع دويّاً هائلاً اذ مرت طائرة فوق الملعب وغطى صوت محركها على
كل صوت آخر (تراها قادمة للتوّ من عبرتو بعد أن أحرقت كل ما فيها ؟
وأولادي ؟ وأشجاري) ... ومرت الطائرة وأعلنت أسماء الكلاب الفائزة
وتم تبادل القبلات بينها وبين أصحابها ولحان التحكيم ومنحت الكلاب
المدلة الكؤوس الذهبية والميداليات ، كل ذلك ومئات من أمثال بو علي واقفون
مشدوهين يتأملون ما يدور بذهول ... حاول بو علي أن يفتل شاربيه فعجز
عن ذلك كأن يديه قد شلتا ... ووجد نفسه بدلاً من ذلك يغطي عينيه بيديه
بينما مرت طائرة أخرى لتحط في أرض المطار القريب (أرى البيوت هناك
تتحرق بيتاً بيتاً ... وخيمتنا فوق أطلال البيوت تخرق ... وأطفالي يلتهبون
بالنابالم ... وخضراء ... وامتنال .. وعلي ... ليت « علي » يحمل السلاح ...
ليته يحمل السلاح ويقاتل)

وبدأ بو علي يتلو صلاة صامئة ، يكرر بذهول : ليت « علي » يحمل
السلاح ... طوال طريق العودة الى القصر ، ورغم نواح أم ببوش لان
ببوش لم يفز بأية جائزة ، ورغم زعيق الراديو الذي توقف عن بث الاغاني

الغربية وبدأ باذاعة موسيقى كلاسيكية لسبب لم يفهمه بو علي ، ورغم شتائم الست شامشا لعدم فوز العزيز ببوش ، ظل بو علي يكرر بذهول :
ليت « علي » يحمل السلاح ...

وصل الجميع القصر مع غروب الشمس ... (يا ليلة الذعر في عيترون ...
سأسرق « الجلفت » عن جدار المكتبة وأذهب الى هناك) حمل الكلب كعاداته
ولحق بأُم ببوش التي ساح ماكياجها وسقط أحد رموشها وشامشا التي بدأت
تشاركها البكاء لسقوط ببوش في انتخابات ملك جمال الكلاب ، وفي المكتبة
كان نظوم بك الحسابوي مع صديق له جالسين ... مرت بهما أُم ببوش وهربت
تتابع البكاء بعد أن ضمت ببوش الى صدرها وعاد بو علي الى المكتبة وقد
استقر رأيه على استئذان البيك بالذهاب الى قريته لتفقد الاحوال ... دخل
ولم يشعر به البيك وصديقه فقد كانا يتجرعان الويسكي ويتسامران ... قال
صديق البيك : صارت زوجتانا هرمتين وبشعتين ...

ونحن أيضاً هرمنا ... ما كان أحلى أيامنا مع تغريد وكهرمان وجواهر ...
(تغريد ! هل يمكن أن يكون هذا هو « البيك » نفسه ؟ .. وهل يعينان
تغريد نفسها ؟ أم علي ؟ .. ولكن ما الفرق ؟ ... أريد الجلفت الآن لا لأقتل
البيك وإنما لأذهب الى هناك ... هناك حيث الحقيقة الوحيدة) ..

ورغم كل شيء غص بو علي بالبكاء فذهب الى مقعده بالمطبخ وارتمى
فيه قليلاً ثم انسل الى كوخه الخاص في حديقة القصر ...

بين يديه دفن رأسه وانزلت الاعوام أمام عينيه وعبثاً حاول استمداد
العزاء من قتل شاريه كعاداته ... كان لهما ملمس الرماد . كان قد تم اغتيالهما
بطريقة ما ... ولكن وجد العزاء في تكرار صلاته : ليت « علي » يحمل
السلاح ... أنا انتهيت ... ضعت ... هربت ... ليت « علي » يحمل السلاح ...
(هناك حركة خلف الكوخ ... اني متأكد من ذلك) ...

يسير بهدوء ملتفاً حول كوخه ... يرى على الارض آثار دماء ... نقطة
نقطة ... يلحق بها ... نقطة نقطة تلتصق في النور القوي الذي يشع في الحديقة
ليلاً خوفاً من السارقين أو لتخويفهم ...

على الارض شيخ يتلوى ألماً ...
يصرخ بو علي : ابني ... علي ... جريح ... اذن حملت السلاح ...
- حملت السلاح !
- وحاربت !

- لا . حاولت قتل أخني دفاعاً عن العرض . ضبطتها تحاول الحرب مع
جول الى المغارة منتهزة فرصة الغارة الاسرائيلية ... ادعت أنها تريد أن
تحارب معهم وتنضم اليهم ... هجمت عليها بالخنجر لأذبحها من الوريد الى
الوريد ...

- وبعد أن قتلتها حاربت وجرحت ؟ ...
- لا . اخني « الوغدة » جرحني ! ... كانت مسلحة ! تصور ...
وتحكم التصويب أيضاً ... قالت لي هذه المرة سأخذشك ، وفي المرة الثانية
سأقتلك !
- ثم ؟

- ثم قتلتها طبعاً ... لم أهرب وانما اختبأت ، ورغم جرحي انقضضت
عليها من الخلف وقتلتها وهربت ... خبثني يا أبي ريشا يطلع النهار ...
- ثم ...

- ثم أذهب الى الشرطة لأسلم نفسي بكل فخر ...
- ثم ... عيرون ... ماذا حدث ؟ ... هل أحرقوا كل شيء ...
- لا أدري . لم أبقَ وانما هربت ... المهم انني قتلتها ...
يدمدم بو علي « يا ويلي » مرة واحدة ، ثم بصمت تماماً ... تسقط ذراعاها
كمجدافين أكلتهما العواصف وأهوال الابحار ... ومن عينيه تطل نظرة
حزينة كتلك التي تتوهج من دمة متحجرة في تمثال عتيق على رف متحف
لمدينة دمرها بركان منذ عصور ...

وفي الصباح لا يلحظ أحد أن شيئاً تغير في بو علي سوى انه حلق شاربيه .
ولم يشك أحد به حين وجدوا بيوش بعد أيام في الحديقة مذبحاً من
الوريد الى الوريد ...

الساعاتان والغراب

ريكاردو ...

موجع أن تمرض في فندق ... فالمرض ترف لا يقدر عليه الناس
الوحيدون امثالي ..

وهذا يومي الثالث وانا محمومة ، مرمية في فراش ، وقد بدأت ارى
النمل يخرج من وسادتي .. ليأكلني ..
ها هو صرصور يتحرك بين أكوام العقاقير الى جانب السرير ، والمروحة
الضخمة تركض في السقف ومن الخارج تهب رائحة عدن الخاصة واصواتها
ومهمات المارة تحت الحص الخشي .

ريكاردو ... ياريكاردو ...

عشاً استعيد ذكراك ...

عشاً أُللم ملامح وجهك في ذاكرتي واعيد لصقها من جديد ...
عشاً اذكر صوتك ، والسنوات الخمس التي عشناها معاً ايام دراستنا
الجامعية وبعدها ... وضحكاتنا المخمورة المجنونة في ليالي باريس وجنيف ..
والبيت الذي أسسناه معاً ، واشترينا كل كرسي فيه معاً ... وحتى علة
الملح ، وصندوق الخبز ، ومكعبات البراد التي ضحكنا طويلاً لأن لها شكل
قلوب ...

عامان بعد الجامعة وكل لحظة نعيشها معاً ... نخطط فيها ليوم زفافنا
الذي كان من المفروض ان يتم اليوم ... واليوم ، إذ افكر بك ، احس ان قلبي
يستحيل ثلوجاً كتلك المكعبات التي اشتريناها .. اليوم بيني وبينك قارات
وبحار ومئات الاميال ...

طائرة ؟ اجل . الطائرة تستطيع ان تلتهم هذه المسافات في ساعات ...
ولكن . ما يقف بيني وبينك اليوم لا يمكن لشيء ان يلغيه الا الموت ...
لانه ليس الرجل الآخر هو الذي يحول بيني وبينك ... لانه « أنا » ... أنا
الحقيقية التي ايقظها الرجل الآخر وكنت اظنها ماتت منذ زمن بعيد ...

ريكاردو ...

عبياً استعيد ذكراك ...

عبياً ألملم ملامح وجهك في ذاكرتي ..

عبياً أصدق انني حقاً كنت هناك ، وقضيت طفولتي ومراهقتي هناك
بين بارييس وجنيف ، وانني حقاً عرفتك ... عبياً اشعر بالذنب تجاهك ..
ذاكرتي ... احسها مثل ابرة حاك صدئة تركض على اخاديد اسطوانة الماضي
وتحاول عبياً ان تبعث في اهترائها صوت الايام الغابرة ... اتساءل : احقاً
كنت هناك ، ام أن كل ما كان كان حلماً ، وها انا قد عدت الى ارض الحقيقة
وأرضي الحقيقة ؟ ...

ريكاردو ...

نسيت ! ... لنقل ببساطة انني نسيت ! ...

ولكن الأمر ليس بهذه البساطة

لم انس .

الامور اشد تعقيداً من ذلك ... واحس وأنا الاحقها انني سجين شرنقة
من الخيوط الجهنمية الحبك ، عبياً التقط بداية الخيط وأفك الشبكة ...

ريكاردو ...

حتى صورتك التي استخرجها من تحت وسادتي ، أتأملها دون ان ينبض
في اعماقي وتر . كأنني ارى صورة رجل لا اعرفه . لا اكرهه ولا احبه ولا
دخل لي به ، ولا ادري من الذي دس بصورته تحت وسادتي ! ...
نعم ! عيناه واسعتان خضراوان . الشعر كستنائي ومضيء والابتسامة حارة
على شفتين كأنما فرغتا للتو من قبلة مسعورة ... ولكن ما شأنني بهذا كله ...

وحينما أحاول ان استزيد من النظر الى صورتك ، تزوغ ملامحك وتتلأشى مثل رماد لافاة ... واعجز عن مزيد من الرؤية ... ربما كانت هي الحمى التي تأكلني منذ أيام ثلاثة ...

وربما كانت هي المروحة التي تدور فوق في السقف بأذرعها الحادة ... تدور تدور تدور ... احس شفراتها الحادة تمزق افكاري مع كل دورة ... تشتتها ... المروحة ... والحر ... الحر الذي لا يستطيع اوروبي مثلك أن يفهم كيف يخرج من شقوق الارض واحجارها وصخورها ومن البحر ومن الناس كما يخرج الضباب في بلادك ...

(هل تذكر يوم حملتني الى معمل والدك للكبريت في ضواحي جنيف ليلة رأس السنة الماضية! ... هل تذكر اللهب الذي كان يفوح من موقد المعمل حيث امتلكتني على الارض الموصخة بالفحم والوقود ، المخططة مثل لوحة سيرالية للشهوة تحت جسدي ؟

هل تذكر ؟ كانت ليلة باردة . قلت لك : يدهشني كيف ينجب الناس اطفالاً في اوروبا ، ففي هذا البرد ، كيف يفكر الناس بخلع ثيابهم ولو لدقائق ، وحتى في شهر العسل ! ... قلت لي : ولكنك عشت حياتك كلها في اوروبا ... صرت واحدة منا ...

— لا . لم أصر واحدة منكم ... فقط عشت معكم ...

— هل انت مصرية ام سورية ؟ لم اعد اذكر ...

— لا فرق . لكنني يمنية من صنعاء . والذي قريب للسلطين او مقرب منهم لا فرق . أمي ماتت ، وابي بعث بي الى مدارس اوربا الداخلية منذ كنت في العاشرة من عمري ... اغل المدارس ... ولكنني لم اره قط بعدها حتى في الاجازات ... كان اصدقاءه يأتون الى المدرسة . يدفعون اقساطي . يرتبون لإجازاتي ... صرت انجيل ان والدي هو رقم لرصيد في احد بنوك جنيف وانه مثل كل الارصدة سري الرقم ، وصعب الحصر .

ويوم خبرني اصدقاءه بحزن مفتعل نبأ وفاته ، وكان في وجوههم التعبير نفسه الذي لوجه ساعي بريد مكلف بحمل برقية نعوة ، مهذب وعابس ولا

مبال ، طلبت منهم ان يوفروا على انفسهم عناء الحزن ... فأنا لم احزن .
كان مبيتاً منذ زمن بعيد بالنسبة اليّ . كان مجرد حساب في البنك ، ولما عرفت
ان حساب البنك يكفي لإعالي كي اتابع دراستي قلت لهم : اذن ابي الذي
اعرفه لم يموت وهذا هو المهم ...

— فلننس هذه الذكريات المحزنة . قررت أن امنحك دفء بلادك هذه
الليلة ... ما رأيك بأن نقضي ليلة رأس السنة في فرن ؟ ...

ضحكت للفكرة . سألتك : هل هنالك مطعم جديد في جنيف اسمه
« القرن » ؟ ...

— لا . بل في فرن حقيقي . لقد اعددت شرائح من الجبن وزجاجة نبيذ
معتق ، وسنقضي سهرتنا في معمل أبي للكبريت .. بالضبط في غرفة الوقود .
لقد رشوت العامل وسيسعدني ان يخلي لنا المكان ...

قرب القرن النفاذ الحارة ، اغمضت عيني ، ومنحتك جسدي ، وحلمت
انني في ضاحية بصنعاء ، في الصحراء ، خلف الجبل الاخضر ، ممددة فوق
الرمال الحارة — حيث كانوا يأخذوننا من زمان اطفالاً للزفة — الرمال حارة
تحتي ، وأنا زنبقة الصحراء السوداء اسكب في الليل بعضاً من الوهج الذي
سكبه فيّ ، اعكس اليه الرعشات التي طالما شحني بها ، انا ليلي التي استطاعت
ان تكون لقيس ، وانا عبله في احضان عنبرة ، وانا شهرزاد بعد ان كفت
عن الكلام « المباح » وبدأت تعبر الجسر الى نشوات « اللامباح » ، وانا كل
نساء صنعاء وكل شهواتهن الخارجة من ازقة مدينتي الضيقة الى دفء الصحراء
في ليالي اليمن) ...

اذكر جيداً كم استمتعت بي يا ريكاردو تلك الليلة ... وانا كنت اظنني
سعيدة بجسدك ... ولكنني الآن فقط أعني انني لم اكن اضاجعك وانما كنت
اضاجع الصحراء الحارة تحتي ... وكنت اتحد بذكري وطني ، بذكري
حرّة اللاهب ، رغم سنوات الفراق ، لم اكن قط اوروبية حقاً ، ولم اشعر
حقاً بأي انتماء . لم ابال قط بأخبار صحف المدن التي عشت فيها... لم

انا قش قط في مشاكلهم ، ولم الاحق قط قضاياهم . كنت مثل السنونو الذي ينتظر بغريزته ودونما تخطيط قدوم الربيع ، كي يعود الى سربه والى حقله ... كان صقيع اللامبالاة الذي احياء يرمي بي الى ضجر ينزف من حواسي كلها ... كنت اشعر انني مقيدة الى قطار رتيب يركض بي بلا نهاية في سهوب من الثلوج ، دونما اية محطة ، او تبديل في سرعته ، او حتى حادث اصطدام .. كنت احلم بالكوارث بشبهة واقراً اخبار الحروب والزلازل بحسد ! (هل تذكر كم كنت افرح حينما اصاب بالانفلونزا او (الجرب) او ايسة حمى ؟ شيء ما في طقس بلادكم كان يرفضه جسدي ... وكان جسدي يحتاج ، وكان احتجاجه باستمرار حمى ورشحاً وبرداً ... وكنت افرح بالحمى ...

كنت افرح برعشة المرض ... تلك الرعشة ... تلك القشعريرة التي تهز اوصالي ... كانت الرعشة الوحيدة التي ثمر بحياة تلك البائسة المقيدة الى قطار سهوب الثلوج اللامتناهية .. كنت تضحك مني ، يا ريكاردو ، حينما اذف اليك بفرح نبأ مرضي ... لم تكن تفهم قط معنى روعة تلك الرعشة بالنسبة لي ... كنت تظنني غريبة الاطوار ...

وتضحك مني ... وكنت أحس بالخيبة ... فانت كاسباني الأصل ، في دمك بعض من دمي ... او هكذا خيل اليّ في البداية ... ومن المفروض ان تفهم بعضاً من جنوني ...

وميشيل الفرنسي زميلنا في الجامعة كان يتقن التقبيل اكثر منك ، وتلميق الالفاظ والتحليلات النفسية الفرويدية ...

وريتشارد الانكليزي كان افضل منك في لف سجائر « الماريوانا » وصنع مخدر ال (ال . اس . دي) في مختبر الجامعة ...

وولفجانك الألماني كان خصاناً في مرج المتعة لأ مثيل لأصالته ووحشية ركضه ...

لماذا انت ؟ ... ربما كان ميشيل على حق يوم قال بعد ان رفضته : انك تفضلين ريكاردو لمجرد انه اسباني . انه الدم العربي فيه هو الذي يشدك اليه . انك رغم كل قشورك ما تزالين عربية صحراوية ، وبالرغم منك تنجذبين لكل ما يذكرك بهذه الحقيقة ... وضحكت منه ... ضحكنا معاً) .. وكنت اظنني احبك يا ريكاردو ... حتى التقيت هنا بفضل ..

فضل .. لن تستطيع لفظ اسمه ، ففيه حرف الضاد .. فضل . عربي الاسم . عربي اللسان . عربي الوجه . عربي الزق عربي العطاء ... عربي الثورة والكفاح والألم ...

انني اهذي ... اعرف انني اهذي .. فضل عربي الجسد ، ففي قدميه ما تزال آثار سلاسل وقيود الجلاد الانكليزي .. انني اهذي .. ثلاثة ايام وانا مرمية هكذا ... والحر يسوط عدن ... والحمى تلهبني ... والمروحة الكهربائية في السقف تدور وتدور .. وحتى حينما اغمض عيني تظل هي تدور ، واطل عبر جفوني ارى ظلال شفراتها ...

ثلاثة ايام منذ أصبت بهذه الانفلونزا المدارية التي لم يألفها جسدي ... اليوم فقط بدأت ارى النمل يخرج من وسادتي وصرخت هلعاً وادعت الممرضة انني واهمة وانها الحمى . لا مناعة لدي في بلادكم . ولا مناعة لدي ضد امراض وطني ... انا شتلة عاشت في غير ارضها ، وعبثاً تعيد انغراسها في ارضها الأم ... طحلب هجين انا ، ولا نجاة لي ...

فضل يقول انني سأنجو ... انه يضحك من مخاوفي ... يقول ان وطني بحاجة الي ... آه كم انا هشة .. تلفظني ارضي كما تلفظ التربة البركانية اية نبتة هزيلة .

في اليوم الاول لمرضي لم اكن خائفة ... كعادتي فرحت بالحمى ... فرحت بالقشعريرة الشرسة التي تستولي على جسدي كله ... ولكن الحمى هذه المرة من نوع لم آلفه ... وها انا اتلاشى شيئاً فشيئاً ...

وحتى قشعريرة الحمى لم تعد تهزني .. صرت مثل ارض رخوة حل بها
الزلازل فلم يجد ما يهزه ... لا قشعريرة ... مجرد نار تشتعل في خلايا جسدي
كلها يخيل اليّ ان النار التهمت فيّ منذ وصلت الى هذه الارض ،
كأنني كنت مرصودة للمجيء وللاحتراق هنا ، كأن العودة الى النبع كانت
محتومة ... والاسماك ترجع دوماً لتموت في المغاور التي شهدت ولادتها ..
في جنيف قبل أن اجيء الى هنا ، كنت اظن الأمر مجرد مغامرة صحفية اخرى ...

(قال رئيس تحرير المجلة التي كنت اعمل فيها منذ تخرجت من الجامعة :
نريد محرراً يطير الى اليمن الجنوبية ويحاول الوصول الى مسقط للكتابة عن
حقيقة الثورة منها ... ما رأيكم ؟

تملئ المحررون . كرر رئيس التحرير : ان اية ثورة في اي مكان في
العالم أمر يخص الانسانية كلها . ومن واجب الصحافة ان تحقق في حقيقة هذه
الثورة ، ومدى اصالتها ، ومدلولها ...

قلت له : انا سأذهب ... انت تعرف اني يمنية الأصل .

— والدك من السلاطين وقد لا يُسمح لك بالدخول .

— لا اظن ذلك ... على اية حال يمكننا ان نبرق لهم .

— حسناً . انت تعرفين العربية وهذه ميزة في رحلة كهذه . حسناً . ربي

الأمور مع سكرتيري .

وتدخل زميل كان يطعم في الرحلة : ولكنك ستزوجين هذا الشهر ! ...

— يستطيع الكاهن ان ينتظر قليلاً . هذه رحلة طالما تمتت القيام بها .

سأطير الى عدن ثم احاول الوصول الى مسقط ، ومن صنعاء اعود الى جنيف ..

وليلتها غادرت المكتب وسرت طويلاً في شوارع جنيف المحيطة بمكاتب

جريدتنا « نوفالا » ... امام احدى واجهات باعة الساعات توقفت طويلاً .

لاحظت ساعة يد غريبة ، ساعة مصابة بازدواج الشخصية ، فهي

تألف من ساعتين داخل اطار واحد ... ولا ادري لماذا وجدته ادفع كل

ما كان معي من نقود ثمناً لها ...

وعدت بها الى البيت ، ولبستها في يدي بعد ان ضببت الاولى على توقيت
جنيف حيث أعيش ، وضببت الثانية على توقيت الزمن في عدن ...
بعد اسبوع جاء الرد بالموافقة على استقبالي كصحفية اجنبية سويسرية !
وضحكت طويلاً امام المرأة . انا سويسرية . والليل في شعري وعيني ،
وبشرتي الصحراوية ! .. انا اجنبية ؟ . وما معنى ذلك التوق المرعب الى ان
اكون هناك ؟ .. ولماذا أرتجف وانا احمل بطاقة السفر وأقرأ اسم عدن ...
ولماذا لم احس بشيء من هذا في رحلتي الصحفية السابقة كلها ... الى
نيويورك .. وهاواي ومدن اخرى طالما حلمت بها ؟)

آه كم رأسي ثقل ... يجب ان اكتب شيئاً للجريدة التي اعمل فيها ...
منذ غادرت جنيف لم اكتب حرفاً واحداً منذ ثمانية عشر يوماً ...
كنت اطوف اليمن ... اركض خلف طيور الماء البيضاء على شاطئه أبين ...
وألمل اصداقها ... وكنت انتشي بالغناء العدني في مسارحها ... وكنت اذهب
الى متحفها واسير في شوارعها والقلم في يدي .. اخبط ملاحظات صحفية
وفي داخلي شعور مبهم بأنني لن اكتب شيئاً ... ولن اخرج من هنا ...
وكنت اجلس امام فضل ، أحد ثوارها وقادتها ، أسجل آراءه وانا احاول
أن أمتصه بنظراتي مثل اسفنجة ... كنت وانا احمل القلم والورق اشعر انهما
ادوات تنكري ، وانني كصحفية اؤدي دوري في مسرحية هي المبرر لوجودي
هنا ... لكنني كنت في اعماقي احيا للمرة الاولى منذ اعوام بعيدة... كنت مثل
سمكة اعيدت الى البحر بعد ان تخبطت طويلاً في شوارع نائية في قارات الغربة .

أجبت فضل . احبيته حتى الوجع . حتى الحمى . احسست بالحمى
أول مرة سمعته فيها يتحدث ... لابل احسست الحمى أول مرة وطئت قدماي
هذه الارض تلك الليلة المسحورة (مطار عدن . الفجر لما ينشق بعد . هبطت
من الطائرة . هاجمتني رائحة عطرية دافئة . المطار صغير وفقير والطائرات
قليلة ، ولكن نبتة وحشية الخصب نمت قرب المدخل رغم اسفلت المطار ..
شجيرات غامقة الخضرة تفتحت فيها زهور وزدية استوائية حارة اللون لها

رائحة عطرية خاصة .. رائحة نفاذة دافئة هاجمتني منذ اللحظة الاولى . كنت فيما مضى احس ان الروائح في اوروبا خافتة كالدكريات . هنا الرائحة نفاذة تجللك .. ووسط هذه الحديقة الصغيرة تناثرت طاولات ومقاعد لتكون مقهى المطار . ومقاهي الترانزيت في مطارات اوروبا التي تبت فيها هي دوماً مكان كتيب تجلده الريح الممطرة والصقيع ، وفي احدى ردهاته المغلقة يحتمي المسافرون الضباب والبرد والغربة مع قهوة الصباح .. آه كم شربت قهوة الغربة في صباحات المطارات النائية الموحشة .. هنا انفاس الفجر الحارة توحى بانني في عالم آخر ... عالم لا يعرف الشتاء ... والروائح العطرية كثيفة الحضور ...

وتقدم مني شاب محروق البشرة يسألني بالفرنسية : مدموزيل أيدا ؟ انا شودرى الأحمد . انتدبتني وزارة الاعلام لاستقبالك .

لم اقل شيئاً . كنت حزينة حتى الموت لانه خاطبني بالفرنسية . انا هنا في وطني ، وانا هنا سويسرية . هذا ما يقوله جواز سفري على الاقل ! ... واسمي عابدة وينادوني أيدا ! تحجرت وتذكرت كل ما سبق وقرأته من اكاذيب شعرية وادبية عن العودة الى ارض الوطن ، وكيف يرثع العالدون ويدفنون وجوههم في حفنة من ترابهم . اكاذيب أدبية . لم اركع . كنت مشاولة . ولم اتناول حفنة من التراب ، فقد كان الاسفلت تحت قدمي صلباً ، واحسست ان الدم يندفع الى وجهي كأنني مرعته للتو فوق اسفلتها ... ولكنني كنت واقفة بلا حراك ، وأيقظني صوت الشودري يقول بالفرنسية ايضاً : الأخ فضل النديم .

كانت اول مرة أراه . كان نحيلاً أو ربما بدا لي هكذا بوجهه المتعب بينما اضواء الفجر تبليج وترمي غلالتها الرمادية فوق ملامحه المليئة بالقلق والارهاق . كان له وجه رجل لم يم منذ ايام ، وربما منذ اعوام ... ولولا ذلك الشعاع النفاذ الذي كان ينبعث من عينيه وكله عناد وشراسة ، لظننته مشرفاً على انهيار عصبي ...

وبدا لي من الحركة غير العادية في المطار انه كان يودع ضيفاً ما ... قال لي بالانكليزية وبلهجة شخص ليس لديه وقت يضيعه بالمجاملات : آه . مندوبة جريدة «نوفالوجيف» ؟ تذكرت . استطيع ان اقلك بسيارتي الى عدن .

في السيارة وقد غادرنا اصغر وأفقر مطار شاهدته في حياتي ، ولكنه المطار الوحيد الذي تفوح منه رائحة عطرية برية حارة - اتجهنا نحو عدن ... وبدأت اخلع اكوام الثياب التي كنت ارتديها ... كان الجو حاراً حاراً كما كنت اتذكره في احلامي التي طالما دارت في اليمن .

المدرسة الداخلية في ضواحي جنيف باردة باردة . ليلة عيد ميلادي الرابع عشر تذكرت أمي التي لم اعرفها وحقدت عليها لانها تجرأت على ان تموت وتركني . وتذكرت الشيك الذي وصلني ، والذي يمثل بالنسبة اليّ أبي ، ونمت دون ان أبكي ، لكنني اخرجت من درجي المقل مدفأة كهربائية اسرق بها الدفء واضعها في غرفتي الصغيرة ليلاً في ليالي الوحشة والبرد ، ثم اخفيها بخذر مع خيوط الصبح الاولى قبل ان تكتشف الراهبة ذنبي . واشعلت المدفأة الكهربائية ، وحلمت ليلتها بأن الدفء شديد شديد ، وبأنني اسير مع أمي في أحد شوارع اليمن ، وأنني صغيرة والعرق يتصبب مني واريد أن اقبل أمي ولكنها طويلة طويلة ونالبة وانا صغيرة وانا نمر امام باب معبد هندي وان رائحة نفاذة معينة تفوح منه ، وأن أمي دخلت الى المعبد وخلفتني في الخارج ، ثم يشتد الحر وتطلع الشمس مثل وحش له اسنان من النار ، وان الشمس تقرب مني وتقرب واني التهب واني اصرخ واصرخ ...

واستيقظت وانا اصرخ ، وكانت النار قد شبت في الستائر وفي ملاءة فراشي وكادت تمسك بي . لقد قربت المدفأة تلك الليلة اكثر مما يجب ... ويومها دفعت «الشيك» الهدية ثمناً للضرر المادي الذي احدثته ، كما ان الراهبة اللئيمة هددتني بجهنم عقاباً للخطيئة ، ولم تقل شيئاً عن سرقتها لثمن

الوقود الذي ندفعه ، والذي تبنيه بدلاً من ان تدفنا به في ليالي وحشتنا نحن نزلاء المدارس الداخلية الذين حتى بعد ان نغادرها نحس بان العالم كله ما يزال مدرسة داخلية بالنسبة لنا .. ونظل طيلة ليالي عمرنا نحس لسع بردها الموحش الكئيف ...

للمرة الاولى منذ زمن طويل ، احسست بمتعة الدفء ، وزايلني البرد تماماً بينما نحن في طريقنا من المطار الى عدن ، وخلعت اكثر من خمس «كزات» . انفجر فضل ضاحكاً وقال بالعربية : ها انت تنصبين عرقاً والشمس لما تطلع بعد ، ونحن في منتصف الشتاء بين كانون الثاني وشباط ... وادهشني اني افهم العربية جيداً رغم اني لم اسمعها باللكنة اليمنية منذ زمن طويل ... كنت التقي بعض الفلسطينيين والسوريين في اوروبا . لكن اليمنيين من ابناء واحفاد السلاطين وحاشيتهم الذين هربوا امواهم الى اوروبا كانوا يتجنبونني ، فرغم ان والدي كان واحداً من طبقتهم الكريمة ، إلا أن امي كانت فيما يبدو خادمة لديه ولم تكن من طبقة «الاسياد» وانما من «الخدام» ... ربما لذلك تفاني بعيداً كي لا يرى في وجهي ما يذكره بما يظنه عاراً على طبقته ... فليذهب إلى الجحيم هو وطبقته ورقمه السري في بنكه السويسري (لقد ذهب على اية حال وانقضى الأمر) ..

الضوء يملأ الدنيا ونحن ندخل عدن ، الجبال سوداء بركانية وحشية الصخور والجمال ورياح الفجر البحرية الدافئة التي تأتيني عبر نافذة السيارة تحمل اليّ رائحة خاصة وايحاءات عجيبة .. تذكرني بانني في الارض التي حلمت بها ، حلمت بانها ارض الاساطير وقدم آدم ومركب نوح والبحور والعاج وبلقيس .. لم اكن ادري يوماً اني سأنسى كل شيء عن هذه الصورة الوهمية ، وانني في ارض الحقيقة العربية الاولى : الثورة ! ... وان عدن هي جمره الجزيرة المعتمة .. أنامل وجه فضل في النور .. منذ الدقائق الاولى اثار في نفسي شهية لمعرفة ... لرويته في ضوء أفضل .. لسماع المزيد من

كلامه ... للنفاذ الى ما تحت جلده .. لكنه كان شحيح الكلام ... لم يفتح فمه إلا حين اقتربت السيارة من شارع تبدو فيه بيوت التلك والفقر المروع قائمة خلف بيوت عصرية حديثة ... وبدأت الابنية الحديثة في هذا الاطار الكثيف من الفقر الذي لم ار لمظاهره مثيلاً من قبل مثل ديكور لفيلم «وسترن» داخل قرية من البؤس .. قال فضل بحرارة : هذه الابنية كانت قبل الثورة للانكليز ولعملائهم ... وخلفها يعيش شعبي كما ترين ... هل تفهمين العربية ام تفضلين ان احذلك بالانكليزية أو الفرنسية ؟

وكنيت افهم . كنت اجد صعوبة في الرد بالعربية ، لكنني كنت افهم كل حرف ، وكنيت استمتع بسماع كلماته مثلما يحس سجين في المنفى حينما يسمع اغنية كانت أمه تنشدها له في طفولته لينام ، يغنيها سجين آخر عبر الجدران الحجرية للسجن ...

توقفت السيارة اخيراً امام فندق « كريست » . وتمنيت لوابقي معه ... أحسنتي قريبة منه ، واعرفه منذ زمن طويل ، حتى ادعشتني ان علي ، ان اقيم في الفندق وحدي هنا بدلاً من ان ارافقه الى داره ! ...

لم يبد عليه انه يشاركني شعوري . قال لي بشيء من البرود : انا ورفاقي على استعداد دوماً للإجابة على اي سؤال . انمئى لك اقامة طيبة هنا ...

وذاب مع خيوط الشمس الاولى ... واعطاني الشودري رقماً وقال : متى اسرحت من رحلتك اتصلي بي لنبدأ العمل ...

ومن يومها لم اعرف الراحة ! وحين ضمنتني غرفتي وحدي ، لا ادري لماذا ادرت عقارب ساعتي المزدوجة وبدلت توقيت الساعة التي تشير الى توقيت جنيف ، فجعلتها تشير الى توقيت عدن . صارت الساعتان تشيران الى توقيت اليمن . وحين أخرجت صورة ريكاردو ، شاهدت فيها وجه فضل . يد فوق جبيني .

بصعوبة افتح عيني .

المرضة بثياها البيض تقول : هل تسمحين بقياس حرارتك ؟ ... خلف رأسها ما تزال المروحة تركض .. والعرق يتصبب منها ومني ومن

الجدران ومن الخوص الخشبي للنافذة . أسألكم الساعة ... فخلف الخوص الخشبي للنافذة يمر في كل ليلة طائر يشبه الغراب ... يتقرخشب النافذة ويهزها بجناحيه كأنما يحاول أن يوصل الي رسالة ما ... كأنه رسول من مكان ما يريد مني ان ارافقه الى حيث لا ادري ...

قالت : انها الثانية عشرة ظهراً نسيت ان اقول لك ان السيدة فاطمة النديم زوجة الأخ فضل اتصلت بك بينما كنت نائمة ... إنها ترغب في زيارتك وستأتي بعد ان تنتهي من عملها ...

— عملها ؟ وهل تعمل ؟

— طبعاً . انها استاذة ومن زعيمات الحركة النسائية عندنا ..

زوجة لفضل ! ...

ذلك الكيس الأسود الذي كان يتدحرج خلفه في الشارع في الليلة التالية لوصولي الى عدن ... شاهدتهما ولم يشاهداني .

كنت في سيارة وزارة الاعلام مع الشودري . شاهدتهما من بعيد ، كان يسير ، وكانت تسير خلفه على بعد خطوة ، وكانا كغربيين ارغما على المشي على رصيف واحد بالصدفة .. كانت شيئاً ملفوفاً بملاء سوداء يتحرك على الرصيف قال الشودري ان اسمه (الدرع) ... وجدت في هذا المشهد بعضاً لتفسير الوحشة التي تومض من آن الى آخر في عينيه ...

قررت : كم هو مروع ان يكون مناضل كهذا وحيداً ، عارياً من نصفه الثاني ...

قررت : افقده . ويجب ان اراه .

قلت للشودري في اليوم التالي : اريد اجراء مقابلة مع الأخ فضل . هل يوافق ؟ ...

قال : اشك في ذلك . انه مرهق ، وقد اعلن اليوم عن اعتكافه في مكان ما خارج بيته ...

قلت له : ارجوك ان تحاول ...

في اليوم الذي تلا قال الشودري : وافق الأخ فضل على استقبالك .
اختصري في اسئلتك لأنه متعب ...

كان فضل وحيداً في منزل يطل على شاطئ بحر العرب ...
فتح لنا الباب . بدا شاحباً وأصغر سناً ... ولاحظت أن يده الممسكة
بالغليون ترتجف .. وامامه كتاب « المسيح يصلب من جديد » لكازانتزاكيس .
شعرت بعاطفة جارفة نحو ذلك الرجل الرقيق الصلب كال فولاذ ، الذي يمسك
باصابعه النحيلة عشرات من المتاعب والأزمات ... فالانكليز لم يخرجوا من
عدن الا بعد ان خلفوا لها تركة هائلة من التخلف والفقر والمشكلات ...
وخلفوا للثوار الغاماً من المصاعب تنفجر واحداً بعد الآخر .. احسست بعاطفة
جارفة نحوه حينما لاحظت اسماء الكتب التي تملأ المكان . انه مثقف . اي
انه معذب . حينما يكون السياسي او الناثر مثقفاً تتعمق قدرته على الحس
بالصراع والألم ... قال لي بصوت خافت جداً : اهلاً بك ... هل تحبين
ان نتحدث بالعربية ؟ ...

وتحدثنا طويلاً عن تجربته قبل الاستقلال وبعده ...
— ايام الاستعمار ، كنت انتكر باللحية والعمامة وانا مطلوب حياً أو ميتاً ،
وانحرك امام اعين الانكليز دون ان يعرفوني ... في البداية أحسست بالخوف
وانا انجول هكذا في صنعاء ... انتقل في البلاد ... ثم ألفت ذلك ، ويوماً
بعد يوم مات في قلبي ذلك النبض الحار الذي يشبه اللذة والمدعو الخوف ..
لم يبق من تلك الأيام غير آثار قيود السجن على قدمي . بعد الاستقلال واجهنا
مشكلات اكبر واخطر ...

قلت له بالعربية متوكئة في بعض الالفاظ على الانكليزية ، وكنت فرحة
بها مثل طفل اكتشف نشوة المشي للمرة الاولى :

— انكم تواجهون مشكلة مرعبة هي هبوط الدخل القومي بعد الاستقلال
هبوطاً هائلاً ... فالوعى السياسي ليس بديلاً عن الطعام ، وكل ما في الأمر
انه يساعد على مزيد من الصبر ... ماذا لديكم من خطط ؟

والتهبت عيناه ، وانطلقاً غليونه .

وبدا يحذني بايمان مدهش عن المسيح الذي يحمل السيف ، وعن تأميم
البنوك ... والتنقيب عن المعادن ... والثورة التي خلقت في اقطار عربية
اخرى ثواراً بالكلمات والسموكن ، وثوار مقاه ، لكنها في عدن المتشقة
المناضلة تخلق عمالاً حقيقيين يثرون في الحقل والمصنع لا في الحفلات
والندوات التلفزيونية .. وكان يتحدث ... وكنت اكتب ... وخلفه على
الحدار التمع خنجر حاد ... وكلما ازداد كلاماً وحماساً كنت احس بالخنجر
يزداد حدة والتماعاً ويكبر ويكبر حتى يغطي الحدار كله ... والتهبت
حماساً ... والتهبت الشمس في البحر خلفه ، واضاءت امواج الخليج
وكان ضياؤها خناجر ، آلاف الخناجر التي تعوم على مياه الخليج ، وخيل
الي ان آلاف السباحين يحملونها في افواههم يسبحون تحت الماء كاسماك
القرش الشرسة ويحومون دفاعاً عن الشاطئ الذي استبيح مرة ، ورست فيه
للمرة الاولى باخرة الاستعمار ، وخرجت منه للمرة الاخيرة .. أبداً ...

ومرت الدقائق ... لا ، بل الساعات ، فقد سمعت صوت رحيل سفينة
في الافق البعيد ... وحزنت .. وقلت له فجأة :

— هل استطيع استعادة جنسيتي ، والبقاء هنا ، والعمل هنا ؟

قال بحرارة خنجر يعانق غمده دون ان يؤذيه : — طبعاً . ستبقين .

الحمى تمزقني ... اشعر اني عاجزة عن تذكر تفاصيل الايام الباقية
معه ... آه كم احببته ... كم بكيت في الليل حينما كان يعيدني الى فندقتي .
ثم يتلاشى في الظلمة مثل نقطة مضيئة تبعد ، ويخلفني وراءه مثل شيء ،
مثل شجرة ، مثل المقاعد الحجرية في الحديقة امام الفندق انها المروحة
التي تمزق افكاري . لا . لست مريضة . لست محنومة ، انه الحر ... اوقفوا
هذه المروحة .. اذن ستأتي زوجته ... اذن زوجته استاذة وسيدة مثقفة ،
وانا التي ظننتها طيلة هذه الايام زكية محشوة بالاطفال والضجر ...
تأتي المريضة وتقول :

— حرارتك مرتفعة جداً . اتصلت بالطبيب وسوف يحضر وقد ينقلك الى المستشفى .

اذن لم تعد الابر المحشوة بالبسيلين تجدي امام ارادتي . اريد ان أرحل مع الغراب حينما يجيء الى حيث لا ادري
زوجة فضل ستأتي بعد ان تنتهي من عملها وانا التي ظننتها رحماً يجتر القات والثروة والتثاؤب ... طيلة لحظاتي الحلوة مع فضل لم افكر بها ولو لحظة واحدة

كنت اعتبرها من فصيلة أخرى لا دخل لي بها .. بل كنت احقد عليها ... كنت احس ان « فضل » بحاجة الى امرأة تفهم حقيقة مهامه وتقف الى جانبه لا مجرد آلة حاضنة لاطفاله ... لم اسأله عنها قط حتى في احلى لحظاتها ... وحتى حينما حدثته عن حياتي وعن ريكاردو وسألني مطولاً عن علاقتي به ، لم يخطر ببالي ان اسأله عنها

المروحة التي تدور في السقف تقرب مني باستمرار . تكاد تمزق رأسي . ظلالها المسعورة تفت ذاكرتي . الممرضة تحمل وعاء ماء وتقرب مني . عبثاً اثبت نظراتي عليها او على اي شيء ... النمل عاد يخرج من وسادتي غزيراً ، والخنجر ، هديته ، أضمه الى صدري — يجب الا أنسى ، يجب ان أوصيهم بدفته معي — . الممرضة تحمل وعاء . تضع على رأسي كمادات باردة ... اتركيني ، اتركني صور سعادتنا المحمومة تقور في رأسي ... ثلوج العالم كله لن تبرد صورته في اعماقي ، وأبجرة ذكرياتنا داخل دماغي ...

(اول مرة قال لي احبك ، قالها كما لم يقلها لي اي انسان قط من قبل . هتف اليّ ظهراً ، ربما من مكتبه ، وقال لي فجأة : قررت اني احبك . وظللت صامته . شعرت بأن صدري ينشق وانني لم اعد قادرة على التنفس وبدأت الذموع تسيل من عيني . ظل هو ايضاً صامتاً ، واحسست صمتنا عناقاً فيه شراسة الالتصاق اكثر من اي عناق جسدي ...

تذكرت عشرات الرجال الذين قالوا لي « احبك » على ضفاف السين

وفي حانات لندن وليالي جنيف .. لم تدمع عيني قط . بل كثيراً ما اعتبرت الأمر نكتة لطيفة ، أو ثروة غير هامة ... وكنت دوماً اضحك للكلمة ولا احس بانها تبدل شيئاً في مدار حياتي أو سلوكي او حتى غريبي .. كلمة « احبك » كان لها هذه المرة وقع آخر ... نكتة مختلفة ... ربما لانك قلتها بهذه البساطة ، وفي ضوء النهار ... وربما لانك كنت وحدك الذي أحبيت ... اجل ! قلت لي احبك ، وصمتنا قليلاً ثم اغلقنا معاً سماعه الهاتف ...

وجلست افكر .. ربما للمرة الاولى أحب حقاً ... قبلك لم أحب قط رجلاً ضد مصلحتي .. كنت وحيدة في هذا العالم ، وكان عليّ دائماً ان آخذ بعين الاعتبار عملي ودراسي وعيشي حين افكر بحب أي رجل ... ويبدو انني كنت أعني ذلك وعياً غامضاً ، لأنه لم يحدث قط أن أحبت اي إنسان يمكن ان يسبب لي اي اذى ، او دمار نفسيّ او معنوي ... هذا ما احفظه الآن وانا اذكر الرجال الذين مرّوا في حياتي ، لم يكن بينهم من كان عليّ ان اضحي حين أحبه .. لم يكن بينهم من كان عليّ ان اشارك زوجته فيه .. وحتى الرجال المتزوجون الذين خرجت معهم في بعض السهرات ، لم يكن يضايقي كونهم متزوجين او لهم عشيقات ، اذ لم اكن احبهم ، بل على العكس كان يربحي ارتباطهم بنساء اخريات لأن ذلك سوف يحميني من مضايقات إلحاحهم ... كانت هذه أول مرة احب فيها حباً اعرف انه سيدمرني ، دون ان املك له شيئاً سوى مزيد من الاندفاع والحنون ... وها انت تقول لي انك تحبني ، ولن يهدىء من وحشة اندفاع كوكبي الى كوكبك شيء .. وسيكون الاصطدام مروع الدوي والنار والهشيم ..)

المرضة تستبدل الضمادات الباردة بكيس من الثلج تضعه فوق رأسي وتخفي . احس والثلج فوق رأسي اني مثل بركان تكدست فوق ذروته الثلوج ... تضحكني الفكرة ... اسمع صوتي وانا اضحك ... ضحكي يستحيل انتحاباً ... لقد اضعت الخيط الفاصل بين الضحك والبكاء . وفي فمي طعم غريب لا ادري ان كان طعم الموت او الحمى او الدم أو مزيجاً من

ذلك كله . وجه فضل يلاحقني كاللعنة ، وأحسه بلونه الصحراوي جزءاً من هذه الأرض التي أحببت ... بل انني حين اتحدت به للمرة الاولى لم اكن ادري أكنت أتحد به ام بالأرض تحتي ... فقد أحببت الأرض والناس هنا ... أحببت عري صراعهم مع الطبيعة والعصر من اجل البقاء ... هنا احسست اني جزء من قضية ... ان هنالك ما افعله .. ان هنالك من يحتاجني وبالتالي يمنحني سبباً للحياة .

اول دقائق وصولي . واجهت الوجه الاسطورة ليمن ... يمن الخرافات والدفء وألف ليلة والاساطير وجنات عدن . وفي الاسابيع القليلة التالية واجهت الوجه الحقيقي ، الوجه المأساة ، الوجه الشرس الذي يفرض كفاحاً معادل الشراسة ... واجهت جحيم عدن بعد ان قرأت الكثير عن اساطير جناتها ... والتصقت بالوجه الآخر ، احسست بالانتماء .. وجدت معركة تخصني وكنت اقرأ صحفها الصغيرة الفقيرة كل صباح وانا احاول ان افهم بالضبط كيف يحاول هذا الشعب النبيل الممزق الأرض الى شمال وجنوب ، المثقل بركة الاستعمار ، ان يكون وان يستمر دون ان يلحق حذاء الدول القائمة على مبادئ لانسانية (اسمها الرسمي امبريالية)

بدأت جولتي في محافظاتها الخمس مع فضل الذي كان ذاهباً الى جبال يافع ...

(كان ذلك في اليوم التالي للقائنا في بيته الملاصق للمنارة ...

غادرنا عدن ...

السيارة الروفر تركض الى شاطئ البحر ... قال فضل بغضبه الفتاك : الاستعمار لم يكلف نفسه عناء شق طريق واحدة بين عدن وبقية المحافظات ... وطار سرب من طيور البحر البيض ... والسيارة تركض موازية للشاطئ تحت رحمة المد والجزر ثم تنحرف لتسير بين الكثبان في شبه مغامرة مستديرة .. مررنا بسيارة متقلبة بين الرمال وكانت الشمس قد اكلت طلاؤها ولم يبق منها الا بعض القماش الذي يغطي جسدها .. بدت لي مثل جسد انسان

مات منذ زمن طويل والتهمة صقور الصحراء ، وقال فضل : ما يزالون في الريف ينتظرون الى السيارة على انها دابة ، وما ترينه من قماش وتزيينات هو بقايا « سرج » الدابة الذي يغطي بعضاً من هيكل السيارة ... أنت يا عابدة قادمة من بلاد مأساتها التهمة التكنولوجية والتخلف الانساني .. هنا نواجه العكس ، لدينا تخلف تكنولوجي ولكن انساننا ما يزال انساناً بالمعنى الاصيل للكلمة ، لا بمعنى بشر المجتمعات الاستهلاكية ...

وتوغلنا في الريف . وكفّ فضل عن القاء محاضراته . بدا شاردأ وكثيباً .. وصلنا الى « أبين » ...

بناء صغير عليه لوحة : « فرع المقر العام لتنظيم الجبهة القومية في أبين » .. ندخل ..

الرجال جبليون اشداء من ابناء جبل يافع ... غرفة بسيطة فقيرة المقاعد ، وغنية بصور الثوار العالميين .. وتجنب فضل والجميع الجلوس فوق « كنية » مقعد واحد من « الستيل » الثمين المهترئة المخمل بدت لي وسط هذه الغرفة مثل رموش مستعارة على وجه راهبة خال من الاصباغ .. سألتهم عن الكرسي قالوا : انه كرسي احد السلاطين . تراه كان كرسي ابي ؟ هل قتلوه وهو جالس هنا ؟ شعرت بأن الامر لا يعني ، فأبي الذي أعرف كان حساباً في البنك ، وقد انتهى منذ نفدت نقوده ، ومات يوم سحبت آخر شيك ! ..

وتحدثوا طويلاً عن مشكلات الفلاح ... عن الصعوبات التي تواجه التأميم ... كان الأمر ببساطة ان هنالك شعباً يحاول ان يحصل على خبزه مع الكرامة والعدالة والمساواة ... وكانت صعوبة ذلك ترسم علياً في كل المشاهد التي تظالني في الريف ... اطفال حفاة وشبه عراة يركضون وسط الطبيعة عزلاً كبقية كائناتها ...

مع جاعم وعثمان وعبد الباري واحمد تجولنا بين قرية المخزن وتخوم زنجبار وقرية الحصن وحصن غضنفر وجعار ... و... و... والاسماء تختلط في رأسي والصورة واحدة ... بؤس لا حد له ... تذكرت بمحمد وانا ارقب

الاطفال العراة واجسادهم النحيلة كمصافير الشتاء الجائعة ، تذكرت الكلاب
السمينة المدللة في جنيف المربوطة امام دكاكين باعة اللحوم بينما اصحابها
يختارون لهم اشهى الوجبات والشرائح الطرية ... وشعرت بانني لن استطيع
قط ان اعود الى جنيف لاعيش بسلام كأنني لم أر ما رأيت .. كأنني حين
ارحل من بلد الى آخر أرحل ايضاً من عصر الى آخر .. وهذا عصري !
وعدت ليلتها من جبال يافع البركانية الخامدة الى عدن ، وانا قانعة بان
البركان الذي عمده في احشاء الارض قد استعر في نفوس ابناء هذه الارض
وسرى نسخ النار والحديد في عروقهم ... لم يكن يفوق بوئهم سوى رغبتهم
في حماية طفلهم العظيم : الثورة .

عدنا ليلاً ... قال فضل : هل انت متعبة ؟

— بل حزينة ... حزينة حتى الوجع ...

وشدني من يدي ، ودخلنا الى المنارة الملاصقة للدار التي كان « يستشفى »
فيها ... كانت رائحة زهر « الكادي » التي قطفها لي تفوح من صدري حيث
دفتها .. كنت اأمل اصابعه وهي تقطف الازهار في الظلام وأكاد لا
اصدق ... هذه الاصابع التي طالما توترت على زناد بنادق ورشاشات وشدت
عليها لتطلق النار ، هذه الاصابع التي طالما التفتت حول مقبض خنجر في
الظلام وتحفز صاحبها للقفز كفهد ، ها هو الآن امامي بالاصابع نفسها يقطف
ازهار الليل والحب كأنه مخلوق الثيري من مسرحية « حلم ليلة صيف »
لشكسبير ...

— الا تذهب ابداً الى بيتك حيث اولادك وزوجتك ؟ ...

قال لي كأنه لم يسمع سؤالي :

— كلي شيئاً من هذا « المقرمش » . لقد ابتعته خصيصاً لك كي تعودني

مذاق طعامنا ...

وتسلقنا المنارة ... درج طويل ، والجدران مدهونة بالاخضر مثل قاع
البحر ... درج لولبي متموج ، وانا اصعد ، وبعد لحظات شعرت انني اسير

في دهاليز مدينة تحت قاع البحر ... انني في قارة منسية في الاعماق وحدي مع
فضل ... ووصلنا الى القمة ، وكانت الازواء تنعكس على مئات المرايا
وعنها ، وبين المرايا وقف فضل ، وشاهدت آلافاً من انعكاس وجهه في
المرايا المشهورة كالسيوف ، وآلافاً من عينيه تحديق في ، فأكلني ، وشعرت
بالدوار ، مددت يدي لأمسك به ولم ادر اي وجه من الوجوه في المرايا هو
وجهه ... احتضنني وجرتني الى الشرفة ... احاطني بساعده وسرت الرعدة
في جسدي ، الرعدة التي لم اعرفها قط من قبل الا حين كنت اصاب بالحصى -
حين كان يضميني رجال اوروبا كنت اشعر بالملل واحس بان اذرعهم قيود
مملة ، وكنت اتسلى بمحاولة تخمين اسم عطرهم او نوع دخانهم ! - . وخرج
معنا رجل المنارة العتيق الى الشرفة ، وكان النور ينطفئ ويضيء ، وقال
بصوته الهرم الذي يشبه صوت الريح : ها نحن نطل على قارات وبحار لثلاثة ..
هنا افريقيا ... هنا آسيا... حدثني جيداً في الظلام تَرَيُّ الهند ... والبحر
الاحمر ... والجزيرة العربية ... واحسست بأن الزمان يقف ، والريح تنصت
بفضول ... واحسست ان المنارة تكبر وتكبر حتى تغطي اليمن كلها وشبه
الجزيرة العربية .. وتضيء وتضيء ، وثمة رجال مقنعون في الظلمة يرجمون
المنارة بالحصى ولكن المنارة تضيء ...

سرنا على الشاطئ في الظلمة شبه المقمرة ... فضل يستنشق اخواء ملء
رثيه ... جلسنا على الارض فجأة منهكين ... قال لي : « آه كم انا متعب
ووحيد ! » .

واغمد رأسه في صدري كما سبق وأغمد حبه منذ ذلك اليوم ، يوم
اهداني خنجره ...

قال : لولا غرقني في العمل الوطني ، لقتلني وحشي كرجل ... ولكن ،
هنالك لحظات يستيقظ فيها القلب الوحيد ... ويحس بحاجة الى امرأة حقيقية.
احبك ابتها الشقية ...

واتحدثت به فوق التراب والاشواك والحصى ... لا بل اتحدثت بحمد

الارض ويجسده معاً ، كانا شيئاً واحداً يحيطني كشرنقة ، وكنت والقة من ان الارض تحني كانت ترتعش وتحقق كجسد حي وحر وندي ... وانا في لحظة ، صرنا ثلاثنا شيئاً واحداً .. هو وانا والارض ...)
المرضة تقول بغضب : لماذا رميت بكيس الثلج عن رأسك ؟ كفي عن الحركة والكلام ... انك لا تتقن فن المرض ...
وضحكت ... ضحكت كثيراً ...

تقول المريضة : كفي عن البكاء ... أنت مصابة بحمى مدارية هونغ كونغية لا يحتملها إلا أبناء هذه الارض ... لقد قتلت هذه الحمى كثيراً من المستعمرين الذين جاءوا الى هذه الارض ولكن الطب تطور ، وستنجين ..
واردت ان اشكر لها (لباقتها) وتطميناتها ، لكنني احسست ان حلقي مثل حنجرة مذبوحة ، ترفض الاصوات أن تغادره ...
اتمسك بصورة ريكاردو ، وأرى فيها صورة فضل ... فضل .. آه كم وكيف احبته ! .. انه لن يدرك قط مدى تعلقي به ... هنالك لحظات يقسو عليّ فيها ويعاملني كسويسرية ...

(خرجت من متحف « كريتير » .. على بابه مدفع عتيق عتيق نائم ، وفوقه نام حارس عجوز بدا لي كأنه والمتحف الاثري من جيل واحد ...
في الداخل الآثار تضيح حياة واصالة ... عيون التماثيل من الاحجار الكريمة ، اكثرها مسروق - المستعمر الذي يسرق عيون ابناء هذه الارض ، لم لا يسرق عيون تماثيلها ؟ - ... آثار مذهشة الجمال الفني والرقى الانساني ...
لاحظت ان تماثيلها كلها ترتدي الاحذية ، وتذكرت الحفاة في شوارع عدن وحزنت ... وانا اغادر المتحف ، مرت بي عن قرب امرأة مرعبة ... كانت ترتدي (الدرع) الاسود وقد غطت وجهها بمنديل اسود شبه شفاف ، مرقط بالالوان الحمراء والزرقاء والخضراء والصفراء برسوم وبقع عجيبة ، وبدا وجهها خلفه مشوهاً كما لو كانت في كرنفال هبي ...
عدت الى فندق كريست ووجدت فضل في انتظاري كي أرافقه الى حضرموت ...

قلت له : المرأة هنا شيء مربع... .

قال : « الدرع » الذي تكرهينه ليس دائماً حزمة من الكسل والبلادة وإنما حزمة من المتفجرات أحياناً . عام ١٩٥٤ كانت نساؤنا يحملن المناشير والمتفجرات والأسلحة تحت هذا القناع ، وقد قدم خدمات هائلة للثورة قبل ان يكشف جنود الانكليز الخديعة ... ثم ان المرأة في الريف كما رأيت حاسرة الرأس تعمل جنباً الى جنب مع الرجل ...

قلت : يجب تحرير المرأة ... ويجب تحرير الرجل من العادات والتقاليد التي تكبل الانتاج ... وتشل العمل وتزيد البطالة بطالة ... ألا ترى معي عشرات الرجال المرمين على الارصفة في الحر كالذباب المتلاشين جوعاً وفقراً ؟ يجب منع القات ... يجب ...

قاطني بحدة : من السهل جداً ان تقولي يجب ويجب ويجب ان تفعلوا كذا وكذا ... انك تتحدثين « من الخارج » مثل اي خبير اجنبي او مستشرق . انك لا تعرفين كم نعاني ... وطريقنا طويلة ومشكلتنا لا نحل بالفضلكات اللفظية ...

قلت بعناد : يجب تحرير المرأة على الاقل ومنع الحجاب ومساواتها بالرجل .
- لدينا نساء كثيرات متحورات ... ربما كان من مآسينا ان بعضهن استحلن رجلاً دون ان يلحظن) ...

اشفق .. ماذا حدث ! اين انا . الممرضة شبح ابيض . كمادات مثلجة على جيني من جديد ... ارجوك ... اتركيني لرحمة الحمى ... لقد تعبت ، والألم في كل موضع من جسدي .. في كل موضع شبت النار واشعر بأني ازحف عارية فوق حقل من الجعر ... والذكريات تشتمل داخل رأسي كالجمر ..

(تجولت وحدي في شارع الزعفران ... ثم سرت طويلاً في الاسواق التي تذكرني بروائح ازقة الف ليلة وليلة ... مررت بجامع الشيعة وتابعت سيري ... ثم فجأة في زقاق تفوح منه رائحة التوابل والكاري والدفء انابني

احساس مرعب : انني كنت هنا قبلاً ! كنت هنا قبلاً ! سرت في هذا الزقاق ذات يوم ! وكان ذلك مذهلاً لانني اعرف ان هذه اول مرة آتي فيها الى عدن وامشي وحدي في شوارعها .. ومع ذلك امتلكني ذلك الاحساس الغامض الكثيف بانني اعرف الاحجار هنا ، ثم وجدت قدمي تقوداني الى باب معبد هندي ... وفجأة تذكرت انني رأيته قبلاً واين ... كان ذلك في حلمي منذ عشر سنوات حين كنت في الرابعة عشرة من عمري ! ... انه المعبد الذي دخلت اليه امي ولم تخرج وخلفتي وحيدة . اقربت من الباب ، كان كبيراً وتقبيلاً وسميكاً وموصداً ومن الداخل تفوح رائحة البخور ... ظلت أفكر بغرابة ما حدث . ولما جاء فضل ورويت له ما كان قال لي بغيظ لم اتوقعه :

— دعيني من مشكلات ما وراء الطبيعة . لا وقت لدينا للاهتمام بها . نحن بحاجة الى الطعام والى السلاح ، ألا تفهمين ؟

في ملعب بحري كريتر ، كان الليل دافئاً ، وملمس الرمل تحت اقدامي على ارض الملعب طرياً وحنوناً ، وكلما هبت الريح البحرية ، المعطرة بالملوحة ورائحة ازهار غامضة تبت سراً في الليل احسستني اركض في شواطئ مقمرة عتيقة عرفت ايجاد صباذي اللؤلؤ من شواطئ هذه الارض ... وما زالت اصدااء مجاذيفهم واغانيتهم تنبثق في الالخان التي اسمعها على مسرح الملعب ... حيث اقيم حفل غنائي بسيط ... كانت هذه اول مرة اسمع فيها الغناء اليمني منذ طفولتي القديمة المنسية .. « احمد قاسم » يغني مع قرعات طبل انساني البداة ، ودعمت عيناى وانا ألحظ أن كورس الاغنية الوطنية اليمنية تتألف جوقتها من الاطفال ... كأن الكبار كلهم مدنسون ، والاطفال وحدهم جديرون بالتغني بالوطن والنطق بالفاظ لوئها الكبار . اغان مليئة بالحياة والحركة فيها تأثيرات افريقية ، والموسيقى خالية من النواح ... ووجدتني ارقص بقدمي وانا جالسة على المقعد .. قال فضل : لسا في حفلة « جيرك » ولا في « مجمع هبي » .. راقبي حركاتك ...

ولم اراقب حركاتي ... ولم ابال بالعيون التي بدأت تراقبي ... وحينما بدأت « رقصة اللوعة » - الدبكة الياغية - قررت ان اصعد الى المسرح وادبك مع الراقصين ...

جرّني فضل بيده قائلا : هيا بنا ...

سارت السيارة بنا في الخلجان المعتمة ومررنا « بللفت بوينت » ، حيث كان يحلو للانكليز اقامة (القيلات) ، وشاهدت فضل يصرّ باسنانه ... قلت له : هذا المكان يشبه كابري في النهار ... وهذا الخليج من اجمل شواطئ العالم ...

ولم يبد عليه انه يبالي بالجمال الطبيعي للمكان ... كان البؤس البشري يسري مثل النار في الوطن وهو والرفاق يكافحون على اكثر من جبهة ... بدا فضل متعباً ... درنا بالسيارة طويلاً وهو صامت .. مررنا بمقهى يدعى « عروسة البحر الاحمر » . اصررت على الدخول . قلت له انه مصاب بالازدواجية وانه يخشى ان يرانا الناس منفردين في مكان عام .

دخل معي على مضض . لم يكن هنالك « اناس » كي يرونا . كان المكان حزيناً وفارغاً ، و « عروس البحر الاحمر » عانس . تماماً ... وكان مكان (الباند) الفرقة الموسيقية فارغاً وآلانهم قد سكنها العنكبوت والصمت .. احسست بوحشة وضيق .. سألت فضل : اين (الباند) ؟ قال : في الحقل يحرقون الارض او يصطادون الاسماك . لا مجال لدينا لتفاهات المجتمعات الاستهلاكية ، ولكنك فيما يبدو تختنن الى هذه الأجواء . تعالي ...

جرّني من يدي وفي وجهه تعبير من يريد معاقبي ..

قال بسخرية : سأخذك للعشاء في (روف روك هوتيل) . إن اصلتك تغادرك من وقت الى آخر ... رغم انتسابك لحزب يساري في اوربا ، ولكنك لا تملكين بعد النقاء الثوري الحقيقي المطلوب هنا ... يبدو ان يسار البلدان المرفهة يمين ! ...

مطعم « فندق روك » يقع في الطابق الاخير للفندق الكبير . يطل على

ميناء عدن المشلول الذي نامت فيه السفن القليلة الباقية منذ اغلاق قناة السويس ، ومن هناك بدت عددن حفنة من الاضواء الملونة المرشوشة بين التلال وخاف الخلدجان .. المطعم مثل اي مطعم غربي ، او هذا ما خيل إليّ للوهلة الاولى .

اوركسترا تعزف ، وراقصون وراقصات ، واسرة انكليزية تبدو سعيدة تلتهم (اللوبستر) الكركند وتستعمل كل « الآلات الجراحية » وعدة الأكل .. وعلى الجدران اقنعة نحاسية لوجوه بشعة ... والسقف مضيء بأضواء مختلفة الألوان كأنها النجوم الملونة ... ومع ذلك كان هنالك احساس غامض بالضيق يغمرني ... كنت اشعر ان هذا المكان شيء مضحك وسط قارة البؤس المحيطة به ... فيه مباحج الحياة ، لكنه محاصر بكل قسوتها وتحدياتها .. ولا احد يستطيع ان ينسى في الداخل ما يدور في الخارج ... بعد قليل ، دخلت مجموعة من الشبيبة العدنية بالثياب المحلية ، والقمصان السبور ، وخيل اليّ أن الخناجر تتلنى من تنابريهم العدنية ...

التقت نظراتهم بنظرات فضل ... التهب في العيون ما يشبه الشهور بالذنب ... خرجوا من المكان ... وبعد قليل غادرناه نحن ، والمصعد يهبط بنا ، شعرت بأنني لا اهبط سنة طوابق فحسب ، وانما ارحل من ارض الوهم لأعود الى ارض الحقيقة الصلبة والواقع ... فعل باب الفندق لاحقاً حتى السيارة شحاذ عاريي القدمين . واوصلني فضل الى الفندق وغضب شرس يشع منه ، ولم يقل كلمة واحدة) ..

من جديد توقظني الممرضة بكلماتها الباردة ... ارجوك .. دعيني .. قلت لك ان لا شيء يجدي ... ما زلت ازحف عارية فوق الجمر ، واحس اني بدأت أنهي مسيرة العذاب ... واتلاشى متى يأتي فضل ؟ سأقول له مرحباً ... مرحباً ... مرحباً العدنية ، الكلمة المسحورة التي تعني اجل ، واتفقنا ، وأهلاً ووداعاً ... « مرحباً » تلخص الحكاية كلها ...

(مرحبا فضل ...)

كنا في الطريق الى الحج ...

مرحبا ابن .. يافع .. زنجبار .. حضرموت .. مرحبا

مرحبا فضل ...

قلت : حول القضايا الدينية يجب ان ...

قاطعتي بشراسة : لا اريد ان اسمع منك كلمة يجب ، بعد هذه الرحلة الى الحج ، تكونين قد عرفت وطنك ، ومن الغد ، تغادرين الفندق ، وتعملين معنا وتكسبين رزقك وتقطنين مع أمي وتستعبدين جنسيتك ... أو تعودين الى جنيف وريكاردو وكلبكما المدلل . لسنا بحاجة الى « محاضرين » ، نحن بحاجة الى عمال ... هل تفهمين ؟ .

وفهمت ... كانت الشمس المحرقة تجلد الطريق ، والغبار يتسلل الى حلقي وانفي ، والدموع بدأت تسيل من عيني ... ضحكك بقسوة كأنه يرقب حيواناً قتبياً يمضي يومه الاول في خط الاستواء ...

واخيراً بدت لحج بلدة غارقة في الرمال ، فيها حزن صخري جاف ، واعمدة من الغبار المضيء تنتصب بين ازقتها والشمس ... وشعرت بدوار ... وبدأت الاشياء تهتز ، الدكاكين الصغيرة الفقيرة ، والاقمشة المعروضة ، والزناير الجلدية الحاملة للرصاص ، وصور عبد الناصر المعلقة خلف اغصان القات الأخضر ، والعنزات التي كدت انعثر بها ... وانحرفنا عن الطريق العام الى الازقة الاكثر فقراً من الفقر ، وطاردنا بعض الاطفال وكانوا فرحين بروية فضل وسألمهم السائق كيف تعرفوا عليه قال أحدهم ساخراً منا « شفتاه بالدرزان » ... (أي بالتلفزيون) ... كان مدهشاً أية سخرية وحيوية وعناد يتمتع بها اولئك الاطفال ! كانوا يقفزون حولي كالشياطين الصغار ، وكنت اتلاشى تحت اعمدة الشمس المدارية ، اتلاشى ... الأصوات تروح ونجيء كأنها قادمة من بُر بعيدة ... طفلة صرخت وهي تتأمل ليابي بدهشة .

« ياسين علينا ... »

« ياسين علينا ... » وسمعت صوتها يعلو ويعلو ، وشاهدت عشرات العيون الصغيرة المستديرة تحدق في وجهي ساخرة وشرسة وهي تزعق « ياسين علينا ... » وتمسكت بجدار منصرة الزيت العتيقة ، ثم شعرت بأن البناء العتيق كله يدور معي ، يدور يدور ... ثم تحول العالم الى صفائح فضية لماعة حادة تنغرس شفراتها في عيني . واستحال كل ما حولي الى وهج ابيض شرس حار لا متناه ...

امسك فضل بيدي وجرتني الى السيارة ... لا اذكر بالضبط كيف عدت ، كل ما اذكره هو انني شعرت بأنني كنت أسير على ارض صخرية ثم تحولت الى رمال سائلة وانني بدأت اغوص تدريجياً في الرمال وان الرمال بدأت تندفع الى فمي وحلقتي ... وانني اختنق ...

اذكر انني فتحت عيني .. كانت السيارة تركض وسط غيمة من الغبار ، ثم الفتحت هوة تحتي ، وبدأت اسقط في بئر بلا قعر) ...

المرضة تقول : جاء الطبيب

عبر ابخرة الحمى عبثاً اتين وجهه . حتى صوته يخيل الي انه قادم من قاع بئر ... يتحدث الانكليزية وانمىز من لكتته انه هندي او باكستاني يتحسني ... يقول اشياء كثيرة للممرضة .. يضعون على وجهي كمادات لا ادري ان كانت حارة او باردة ... احس بحركاتهم السريعة حولي كأنهم يحاولون حصار كوم من الرمل بدأ يشرب من بين ايديهم الى هوة ما ... يغرسون في جسدي ابراً ... ثم يهدأ كل شيء ويتركونني وحدي واسمع صوتاً يقول آه واميز فيه صوتي ... وافتح عيني فجأة كما يستيقظ النائم حينما يقترب منه من يريد اغماد خنجر في جسده ، بهذه الحاسة الغامضة استيقظت .. كانت تقف امامي سيدة جميلة جداً ، كاشفة الرأس ، ترتدي الملابس العدنية وقد سقطت الملااة السوداء عن كتفها ...

كانت تتألمي . ولم تكن تحمل خنجراً وانما ابتسامة ... ومع ذلك لم

يفارقني حسي بالخطر . هضت في فراشي . الى جانب الفراش وسط مجموعة الادوية كان هنالك الخنجر الذي اهدانيه فضل ، خنجر الجدار في بيته قرب الخليج ... وايضاً لسبب اجهله مددت يدي لأخفيه عنها ، وكانت نظراتها تنابع يدي . فتظاهرت بالامساك بورقة وقراءتها ... كانت وصفة الطبيب الذي عادني في غيبوتي فيما يبدو ... وقرأت في اعلى الوصفة عبارة « الله هو الشافي » ...

ولا ادري لماذا خيل اليّ انني اسمع صوت الغراب يحاول ان يقتحم النافذة الخشبية ...

قالت لي السيدة بانكليزية صافية :

- انا زوجة فضل ...

لم ارد .

قالت : اذن انت الصحفية السويسرية التي علق بها مؤخراً ؟

لم ارد .

قالت : كنت أتصورك شقراء زرقاء العينين ... فرجالنا يحبون احياناً امتلاك النساء الشقراوات رداً على امتلاك المستعمر لكثير من نساتنا ايام القهر ...

بدت الحيرة في وجهها امامي . اذن لا تعرف أنني يمينة مثلها ؟ اذن لم يحدّثها عني ؟

تابعت بصوت هادئ وجامد ما هو بصوت امرأة ولا رجل ، انما صوت كائن هجين :

- لا فرق ، شقراء كنت او سمراء . جئت انصحك بالعودة الى بلادك . جسدك الذي يعتاش على الجورنيون والفيتامينات والبسولين لا يستطيع احتمال امراضنا وجراثيم بلادنا ... ثم انني اعتقد ان علاقتكما طالت اكثر مما يجب .. وقد تسيء الى سمعة زوجي ومركزه في التنظيم . انصحك بالسفر فوراً ... الانفلونزا لدينا مرض لا تحتمله اجسامكم ... جوعنا ، ومتاعبنا ، ومآسينا

ومناخنا ، وحتى اوبئنا ، لا تحملها اجسامكم الهشة ...
كان في صوتها شيء رجولي وبارد . فتحت عيني ، وكانت صورتها
الجميلة تقترب مني وتبتعد عني ، كان لها شكل امرأة جميلة جداً ... ومع
ذلك كان هنالك شيء ما يشوه هذه الصورة .. شيء لا يستطيع تحديده وسط
أبخرة الحمى والدوار والمروحة التي بدأت تمزق دماغي ... وبدأت اصرخ :
اوقفوا المروحة .

قالت بصوت بارد : المروحة لا تدور . انها واقفة ...
وكنت اراها تدور بسرعة شيطانية . واحسنتني مربوطة الى إحدى
اذرعها ، وهي تدور بي تدور تدور تدور تدور
تتابع : كل شيء في حياتي وحياة فضل منظم . انا بالمناسبة زوجته الثانية .
هنالك زوجته الاولى ومهمتها انجاب الاولاد . انا مهتبي « النضال الثوري » .
انني اشارك زوجي كل اعماله ومهامه وحتى رحلاته حين يكون لدي وقت .
وليس من عادتي ان اتجسس على اخباره ولكن هذه اول مرة لا يحدثني فيها
عن مغامراته ، ولذا جئت لأراك ... هذا كل ما في الأمر ... بالمناسبة ، هل
تجيب ان احجز لك على أول طائفة ؟

(أن أرحل ...

ان لا اراه بعد اليوم ؟ ..

وهذه الارض التي احببتها بكل فقرها ووجعها وانينها وشراستها ، لا
اراه بعد اليوم ؟

ان اعود الى جنيف ؟ ...

ان اتحرك في شوارعها التي تفوح منها رائحة النظافة المعقمة كما في
المستشفيات ؟ ...

ان اعود الى ريكاردو ؟ ..

ان أبذل عقارب ساعتني من جديد ، فاترك ساعة لتوقيت فضل ومواعيد
نومه ويقتضه عمله ، وساعة لتوقيت جنيف ؟

ان أجد نفسي غداً في جنيف ، حيث الثلوج تغطي كل شيء ؟ ... ان اسير في الشوارع الى النهر ، ثم الجزيرة الصغيرة ، وسط النهر حيث البط الابيض الكسول يتشاءب وينظف ريشه ، والحارس العجوز يروي لي من جديد مغامراته زمن الحرب التي اعرف انه لم يخضها لكنه يحلم بها هرباً من رتابة رفاهيته ...

أن يضمني ريكاردو بعد ان اتمل في احدى الحانات ؟
سأفكر بفضل ... بعينه في ذاكرتي وشماً من جمر ... ساركض في شوارع جنيف مجنونة ... ساركض الى ساعة الزهور ، تلك الساعة الكبيرة التي رقعته ارض من الحشائش ، وارقامها زهور ، وعقاربها ترحف فوق هذا المرج ... ساركض اليها ... وسأحاول ان ابدل توقيتها الى توقيت فضل .. توقيت عدن .. توقيت مئات آلاف الكادحين .. توقيت الجياع ماضغي القات رغم الخنجر في يدهم ... توقيت الذين سرقت اوربا منهم زمنهم وها هم يركضون كي يلحقوا بزمنها ...

اجل ...

ساركض الى ساعة الزهور ... سأقطف كل الزهور وابصق عليها ... لا يحق لأية ارض ان تزرع الزهور اذا كان القمح في أي مكان من هذا العالم غير متوفر ... وسأوقف عقارب الساعة ... ستمزق يدي مستناتها الحادة ... وسيركض رجال الشرطة وستستكر الصحف هذا الاعتداء الهيجي ... وعشاق العصافير الذين خرجوا يتظاهرون في شوارع جنيف يوم قررت لندن اباداة الحمام فيها ، سيتظاهرون ضدي ... ولن يحظر بياهم قط ان يتظاهروا من أجل شعوب سرقت أموالها لتودع في مصارفهم ، ومن أجل شعوب تباد بالقنابل) ... فينتام ... جنيف حيادية ... لا ... الحياد غير ممكن في هذا العالم الوحش ... من ليس معي فهو ضدي .. لماذا لم يحدثني فضل عن زوجته ؟ لماذا لم يقل انها اذكي مني ؟ مثقفة وجميلة ... ماذا يريد مني ؟ لماذا قتلي بخنجره الهدية هكذا ؟ لماذا ازدواجيته هذه ؟ اهذي ... اني اهذي

ولا أستطيع ان اتوقف ..

المرضة تضع جبلاً من الجليد فوق رأسي . الألم يمزق كل عضو من أعضائي ... اوقفوا هذه المروحة ... ارجوكم .. كفى .. كل ذراع فيها مقصلة ... الغراب جاء ... يضرب النافذة بمنحاحيه ... يأكل خشب النافذة بمنقاره ... يفتح دربه إليّ

فضل جاء ...

فضل جاء ...

تقول الممرضة ذلك .

فضل . جفوني ثقيلة مثل ستائر مسرح يمتد على طول الافق ... ولكنني أراه ...
- حبيبتي لم اكن اخدعك . اعرف ما يمكن ان تكون قد قالته فاطمة .
عرفت انها جاءت لزيارتك . لم اكن اخدعك . احبك . وستبقين نلى جانبي ..
وسيعاد غرسك في ارضي ..

كيف ؟ وأنا نبته . كما قالت زوجته ، لن تقوى على المناخ والتربة ؟
- حبيبتي . لم اقل لك انني متزوج لانني لم الحظ ذلك ! ... المرأة الاولى في حياتي تزوجتها وانا في السادسة عشرة من عمري . المرأة الثانية اردت منها ان تكون شريكتي الفكرية لكنها ليست امرأة ... هل تفهمين ما اعني ؟
انها رفيقتي بل رفيقي في التنظيم ، لكنها ليست امرأة ...
انا نائر لكنني رجل . عبثاً قلت لها انها مشوهة كما زوجتي الاولى مشوهة .
الاولى رحم متحرك . والثانية بلا رحم .

إنني بحاجة الى امرأة واحدة تمنحني الشيء ، الذي تمنحونه لي انتنّ
الثلاث ... اني احب ثلاث نساء في وقت واحد كي اصنع منكن امرأة
واحدة ...

هل تفهمين ؟ لم اكن اخدعك ... ولم اخدع أحداً .. المأساة اننا قبل الثورة لم نكن نكفي بامرأة واحدة . كنا بحاجة الى ثلاث نساء .. وها نحن بعد الثورة بحاجة الى ثلاث نساء ... فالمرأة لم تتعلم بعد كيف تستعمل رأسها

دون ان تتعطل انوثتها ..

هل تستطيعين يا حبيبتي ان تكوني ثلاث نساء ؟..

امراة واحدة تكفيين ، على الا تكون معطلة الانوثة ولا معطلة الرأس ..

هل تفهمين ؟ هل تفهمين ، هل تستطيعين ؟

وشعرت بأنني لا استطيع ان اكون اي شيء إلا ما انا عليه ... كنت اصير شفافة .. وشعرت بأن اجنحة لامرئية تنبت لي .. واني استعد لرحيل بعيد بعيد ... وغاب صوت فضل ولم اعد اسمع سوى صوت الغراب يضرب نافذتي بشدة ويحفز الخشب بمنقاره مثل الحفارات الآلية التي تحترق الصخر .. ولم اكن خائفة ولا فرحة .. كنت فقط انتظر ... وفي انتظاري كنت اشعر انني كمن سيطلق سراحه ...

افتح عيوني ... الظلمة تقطن الحص الخشبي ، واصوات الشارع ميتة تماماً وحواسي كلها يقظة وصافية كما لم تكن ابداً .. بوضوح مذهل اعي كل شيء وارى كل شيء ... ها هو فضل مرمي في الكرسي وفي وجهه دموع جافة ... اكثر من طيب في الغرفة ... اكثر من ممرضة ... انايب مغروسة في ذراعي ... اذن يحاولون ضخ الحياة الى عروقي ... ها .. كل شيء مضحك ... لا .. ليست الظلمة دامية خلف النافذة ... اذن انقضت ليلة كاملة .. لا اشعر بأي ألم ... احس بأنني شفيت من امراضي كلها نهائياً .. اني .. اشف ... ارق ... اشعر انني كمن يطلق سراحه من كل قيد ... انه الفجر بدأ يضيء ، منقار الغراب ما يزال يحفر خشب النافذة بهدوء .. انني لا اسمعه ولا اراه لكنني اعرف انه هناك ...

ها الغراب قد استطاع ان يفتح فجوة في الحص الخشبي ... انه ليس غراباً كما كنت أظن .. انه شيء لم يخطر ببال من قبل .. ها الفجر الرمادي يتدفق في الغرفة تدفق مياه البحر الى غواصة ثقب جدارها
ها انا اتسرب معه عبر النافذة ...

الساعة ٤ ليل ٢٣ - ١ - ١٩٧٣

عزراء بیروت ۱۹۷۳

امام المرأة الكبيرة في جناح « العرسان » بالفندق البيروتي الكبير اجلس .
الحلاق الشهير الذي كنت اقرأ عن فضائحه وسيدات المجتمع في الصحف
ينسق شعري . انه وسيم وسيكون لي معه قصة بعد ان انتهي من شهر العمل
الممل السمج . لم لا ، وانا سأصير سيدة مجتمع مثلهن . لا . بل اجمل وأفتى .
وزوجي المغترب الكبير اكثر ثراء من ازواجهن .

(لماذا ناديتني تلك الليلة يا علياء ؟ ... لماذا اردتني ان أشهد مصرعك
المروع ؟ اسرتك حولك مثل أكلة لحوم البشر ، والخنجر في يد والدك وزجاجة
الديمومل في يد أخيك يدفع بها الى فمك لتشربي وأملك سارعت الى نافذة
الشرفة لتغلقها ، وانا اختبأت في ظلمة الشرفة التي كنت قد قفزت اليها من
شرفة غرفتي الملاصقة لغرفتك حين سمعت صوتك يناديني ، وعبر ثقب
الخص الخشبي شاهدت ذلك البريق في عينيك حين شربت السم بملء ارادتك ،
ذلك البريق الذي أكد لي انك اخترت السم لأنك اردته ، كما ذهبت الى
وسيم للمرة الثانية لانك أردته ... وشربت الزجاجة كلها ... لماذا كانت
الريح باردة هكذا ، باردة تحترق اللحم والعظام والاعصاب وتذكرني كم
هو بارد تراب المقبرة حيث ستكونين في الغد ؟ .. بعدها بدقائق ، قرع الباب
والدك وامك وشقيقك ، وظننتهم قد ندموا على ما فعلوا ، وجاءوا يطلبون
النجدة ، جاءوا لاستعمال هاتفا لطلب سيارة اسعاف لانقاذ حياتك ...
لكنهم دخلوا كعادتهم ... وقالت أملك لأمي كعادتها : جئنا نرى برنامج
« » في التلفزيون . ولم يكن في وجه أي من افراد اسرتك تعبير ألم
واحد ، بل على العكس ، كان في وجوههم راحة من أدى واجبه ، وكان

في عيني ابيك الريق نفسه الذي شاهدته فيهما يوم عاد من اداء فريضة الحج ..
وكان اسم الحلقة « شرف البنت » او شيء من هذا القبيل ، وعلى الشاشة ظهر
المذيع « وسيم » . يتحدث بهدوء ويتسم بدقة ، دون ان يدري أنه في هذه
اللحظة بالذات تحتضر امرأة لانها احبته ... ولانها رفضت ان تبوح باسمه ..
لماذا ناديتي تلك الليلة المروعة يا علياء ؟ ... صرخة واحدة حادة مزقت
صوت الريح والعاصفة ... جلست اسرتك ترقب التلفزيون ، وجلست انا
متحجرة عاجزة عن الحركة ... أتأمل وجه وسيم واكتم سرنا المشترك ...
حبنا المشترك . رغم زعيق التلفزيون وتعليقات امي وامك ، كان يخيل اليّ
انني اسمعك وانت في غرفتك تحتضرين ، وربما تقرعين الجدار المشترك بين
غرفتي وغرفتك ، وتحاولين نقل رسالة اليّ كما يفعل السجناء عبر جدران
زنازينهم ... وفهمت الرسالة ...

لا ادري كيف لم اصرخ ... كيف لم اركض لانقاذك . كيف شاركت
في جريمة التستر . كيف استطعت أن أظل صامدة جامدة ، وفي رأسي
تصاعدت انجرة سود كأنما انفتحت في دماغي شق من شقوق الجحيم ، وها هي
الغيمة السوداء تحتلني الى الأبد ... كنت اعرف أن جسدك يختلج وينتفض
كجسد طير سقط في الجليد بعد أن اصيب بطلقة صياد لن يبالي حتى بلم
جنته ... بدلاً من ان اهرع لانقاذك ، هرعت الى المطبخ واعدت القهوة
لاسرتك كآبة فئاة مهذبة فاضاة تعرف كيف تعني بزوار أمها ... واضفت
للقهوة كثيراً من السكر ... كثيراً من السكر ...

لم اجروُ على الانسلاخ الى غرفتي ... لم اجروُ على ان افتر من شرفتي
الى شرفك ثانية . لم اجروُ على ان اراك باردة هامدة . لم اجروُ على ان اسمع
كلماتك الاخيرة . ففي تلك اللحظة شعرت انني ارى ملايين السكاكين
التي يحملها رجال بلادي ، وملايين من زجاجات الديمول في المستودعات ،
المعدة لقتل النساء والقران ... ووعيت للمرة الاولى موقعي من كل ما حولي
ومن حولي ... وسكنتني الغيمة السوداء) ...

ها هي أمي تدعك « بالكريم » ساقتي وهي تزغرد وتعذني وليمة شهية للرجل الذي سيحتلني ويحل في جسدي على الرحب والسعة ... أتأمل يديها واعرف انه كان من الممكن لها ان تحمل بهما زجاجة « ديمول » لترغمني ذات ليلة على شربها ... وابي الذي يهرول في ردهات جناحي بالفندق يفتح الهدايا بسكينه الصغيرة ويطلق من آن الى آخر شهقات ارتياح واعجاب بالهدايا الثمينة . كان يمكن له أن يوجه السكين نفسها الى صدري .. لو لم ... لو لم افهم اللعبة بسرعة ... واتعلم ...

لو لم تحتلني الغيمة السوداء ...

لو لم اخف عنهم الحقيقة ...

الحقيقة ؟ ...

من يأبه بالحقيقة ؟ ...

ثم ، ما الحقيقة ؟ ...

هل احببنا « وسيم » حقاً ؟ ... هل كان حبنا حقيقة ؟ ... أم اننا ذهبنا الى شقته تحت تأثير نداءات تلك الكاتبة التي تجاوزنا مع صرختها بأن نمنح كل شيء للحب ، وان نتمرد ، وأن نعيش بصدق ؟
هل احببنا وسيم ، ام احببنا التمرد ، أم احببنا العالم الذي كانت تنادي به الكاتبة لين ؟ ...

(اشترينا كتابها جلسة . اخفيناه عن اهلنا بين كتبنا . فقد شاهدتها اسرانا في مقابلة تلفزيونية ، بشعرها الفجري ، وأثارهما انها أصرت على التدخين ، وانها تحدثت عن الحرية والثورة الجنسية وضرورة تحرر المرأة ، وقال ابي ان الرقابة يجب أن تمنع مثل هذا الافساد ، ودهش ابو علياء كيف يلقبونها بأديبة مع انها قليلة الادب بدليل أنها تدخن ، ولم ينأما الا بعد ان كتبنا رسالة احتجاج الى التلفزيون والى احدى الصحف ، وحذرانا من قراءة كتبها أو اي حرف تنشره في المجلات تحت طائلة العقاب الشديد ، أي اخراجنا من الجامعة ... وكنا قد نجحنا في الدخول الى الجامعة بعد معركة عنيفة دامت طوال

الصيف ، ولم يكن قد انقضى على العام الدراسي اكثر من شهر . ولم تكن لدينا القدرة على مواجهة زوبعة جديدة ... وتناوبنا قراءة كتاب لين .

كانت الشمس تشرق من صفحاته ... كل سطر فيه دعوة الى الحياة والى التجربة والى الحب ، والى التخلص من خدونا الاجتماعي الذي نتوهم انه حياة ... كان دعوة الى الحياة الحقيقية والا فالمرت الفضل ...

وكان وسيم ...

شاهدناه على شرفة « بناية البستان » المواجهة للجامعة ... صرنا نتمتع باختيار مقاعدنا في الصف بحيث نكون قادرين على رصد نوافذه ، وستائره البنفسجية التي تسدل عادة بعد ظهور احدى الجحيلات على شرفته وشربهما كأساً من الويسكي (كنا نظنها ليمونادة يومئذ) ثم يتبع ذلك دائماً اسدال الستائر اكثر من ساعة ، وكنا ننسى ما يدور في الصف ، ونطلق خيالنا الى ما وراء تلك الستائر الليلية نتخيل ما يدور ... نتخيل شفتي وسيم اللتين نعرفهما جيداً حين تتكرران في التلفزيون امامنا بينما هو يتحدث ، ونتخيله وهو يطبق بهما على شفتي الزائرة المجهولة ... وكانت الستائر تخفق ، وانفاسنا تتسارع وتضطرب ، والستائر ترتجف ، تهيج ، تنج ، ونحن عبثاً نطفئ النار التي انبثقت في مسامنا كلها ... واخيراً تهدأ الستائر حين يرفعها ، ولسمع صوت انزلاقها - او يخيل البنا ذلك - حاداً وقاطعاً مثل سكين تمزق خيمة ، وتنتهي مسرحيتهما التي كنا نشارك فيها دون ان يدريا ... بل ربما كنا نرتجف ونتمزق اكثر من تلك التي يضمها خلف الستائر ... كنا المتفرجين الذين يعيشون المسرحية اكثر مما يعيشها ممثلوها ...

لذا لما كنا نلتقي به امام مدخل البناء صدفة ، كنا نبتم له بخجل ودود خائف ، كاننا شركاء في عمل واحد شهواني .

وكان يطل من عينيه حين نحقق به تواضع مصطنع ولطف مسرحي مثل تلك النظرة التي تطل عادة من عيون المشاهير امام الناس العاديين حين يتحدثون

بهم كأنما يقولون لهم : لقد عرفناكم ..
ولذا لما تجرأ ودعانا الى بيته لشرب الشاي ريثما يحل موعد الصف -
وكان موعد الصف بعد ثلاث دقائق - كان صوته مستريحاً ، بل وفيه بعض
الضجر والتعالي ... وصعدنا معه دون تردد ... كنا نحوت شوقاً لرؤية ما
وراء الستائر البنفسجية ... لرؤية المكان الذي نتعري فيه ونُقَبِّلُ ونستسلمُ
ونحيا ونمنح ونشهق ونلهث ونرتعش بينما نحن في الصف ...
دخلنا ...

ولم نجيب المكان احلامنا ...
كان صدفةً بنفسجية ...
الجدران ... الأرائك ... الأضواء ... مزيج مسحور من الأسود والبنفسجي
والموسيقى كالإضاءة لا تدري من اين تنبعث ... وغرفة النوم ، الستائر
بنفسجية كالجدران ، والسقف اسود ، وملاءة السرير سوداء ، بنفسجية
الوسائد الحريرية ...
كان حلماً عجبياً ...

حلماً اشتركنا فيه علينا وأنا بكل براءة ... براءة لا تعرف الرغبة في
الامتلاك او الاحتكار ... براءة لا ترفض المشاركة ... وكما ان الطفل لا
يبكي لان الشمس تشرق لسواه ، كذلك لم يضايق علينا أن تذهب الى
الصف ، واذهب انا الى وسيم على ان نتبادل الادوار في اليوم التالي ! ...
سألني : هل أنت عذراء ؟
قلت بدهشة : طبعاً . لماذا ؟ ...
بدا عليه الضيق ، وتأفف ثم قال هذا لا يهم . سنحتاط للأمر . لا نخافي ،
سأكون حذراً .

قالت لي علينا في الاسبوع التالي انه سألها السؤال نفسه ، وابدى الضيق
نفسه .

صدر كتاب جديد من تأليف لين . اشتريناه . قرأناه . بعد اسبوع قالت لي علياء : مريم . لم أعد عذراء .

قلت لها : وانا ايضاً . ولكن الأمر لا يهم .. كل ما في الأمر انني لاحظت بعد ذلك . وللمرة الاولى . ان السرير البنفسجي الذي كان يحتوي كحلهم . كنجمه تطير بي . صرت الحظ صريره الحاد تحتي ، وبدأت الحظ انه مجرد سرير حديدي .

بعد شهر قالت لي علياء : وسيم لا يريد أن يراني . يدعي انه يريد هي ان التفت لدروسي فقد اقرب موعد الامتحان . قلت لها : وأنا ايضاً .. لاحظت فنوره .

انقضى اسبوع . وعادت الفتيات يظهرن على شرفه والستائر تسدل ... وترتعش ... حتى جاءت هي ، الممثلة المشهورة .. كنا في الصف حين شاهدناها للمرة الاولى ... خيل الينا أننا نعرفها ، فقد كنا نراها تمثل في احد برامج التلفزيون ... تلك الليلة عرفنا للمرة الاولى الغيرة . كل الناس كانوا يدون لنا غير حقيقيين وبالتالي لا يمكن ان يثروا حيناً او غيرتنا إلا أشخاص التلفزيون والروايات والقصص ... وحدهم كنا نحس بهم حقيقيين وبالتالي نغار ... ونحب .. كل النساء اللواتي شاهدناهن على شرفته لم يثرن غيرتنا ... كنا نحس انهن مجرد وهم

أما هذه الفتاة التي شاهدناها تمثل فقد كانت من طينة بطالات الروايات مثل بطالات قصص لين ... كانت حقيقية بالنسبة الينا .. واكلتنا الغيرة ...

وتعذبنا ...

لا ادري كيف خطرت لي الفكرة . كنا ببساطة نتعذب ، وكان لا بد لأحد من ان يكون مسؤولاً عن عذابنا - اي « أحد » ما عدانا - وقلت لعلياء : سنذهب الى لين . هي مسؤولة عما حدث ...

وقالت علياء وقد غرقت في تفكير عميق : لا يا مريم . لا اظن ان لين

هي المسؤولة ... ولكن فلنذهب إليها على أية حال ... أريد ان أراها واتحدث إليها .

بينها كان صغيراً . بسيطاً . يكاد يكون فقيراً لولا جمال مشهد البحر خلف النوافذ . لا اثاث فيه سوى اوراق وكتب واسطوانات متناثرة فوق (موكيت) زيتي ، وفراش صغير على الارض مغطى بفرو الارنب في ركن الستوديو يتمم لوحة القوضى حولها ...

كانت جميلة ، ولا تبدو اكبر سناً منا بكثير ... دخلنا ، ارتبكنا ، لم نقل شيئاً . صرنا نتهامس . قالت لين بفضافة : آسفة ، ولكن لدي عمل انبيه للمجلة التي اعمل بها . لا وقت لدي اضيعه ريثما تنتهيان من همساتكما . ماذا تريدان مني ؟

قلت لها فجأة : انت مسؤولة عما فقدنا ! ... هذه علياء وانا مريم ولم اعد عذراء ولا هي ، وقد فعلنا ذلك كله تحت تأثير حروفك وتعاليمك .. ماذا تملكين لنا الآن . ماذا نفعل ؟ ..

انفجرت لين تضحك . تضحك . ثم انصتت بهدوء بينما رويت لها الحكاية . قالت : اذن القضية انكما فقدتما الرجل الذي تحبان لانكما منحنياه نفسيكما ؟ هذه مشكلة طبيعية لا بد وان تمر بها كل فتاة متحررة في مجتمعنا الانتقالي هذا ، فالرجل الشرقي ما يزال يخاف المرأة التي تمنح ... انه ما يزال يتوهم الحب والعطاء تهكاً وهو لذلك لا يتزوج المرأة التي تحبه وتمنحه ذاتها ، وانما يفضل التي يشترها ، فذلك يمنحه حساً بالامتلاك والأمان اكثر ... الحل ؟ لا حل لجيلنا ... لا مفر للمرأة من ان تعيش هذه التجربة المروعة مراراً وتكراراً ريثما ينضج الرجل ... وتستعيد عواطفه انسانيته .. قالت علياء بنفاد صبر : لم أعد عذراء . هل تفهمين معنى ذلك ؟ سيقتلني أهلي لو علموا ! ...

وبكيت بدوري : لقد فقدنا عذريتنا . هل تفهمين معنى ذلك بالنسبة لنا ..

وانفجرت لبن تضحك وتضحك . ملأت كأساً من الويسكي وبدأ في عينيها حزن حقيقي ناء ... قالت باستخفاف : إذن هذه هي كل المشكلة ! .. بسيطة ... كنت اظنكما تتألمان بشكل اعمر ... اذن كل المشكلة هي عذريتكما اي لو عدتما عذراوين لانتهت مسؤوليتي ، وانتهى عذابكما ... صرخت علياء : طبعاً .

قالت لبن : يا غبيتان ! . الا تعلمان أن التكنولوجيا حلت مشكلة البكارة ؟ وأن اية مومس من « حي المتبي » تستطيع ان تعود عذراء ٣٠٠ ليرة لبنانية ؟ ... الطب الحديث حل هذه المشكلة ... يستطيع الطبيب ان يخطط لكنّ ما تمزق ، اذا كان كل ما تمزق هو اغشية جسدية ! .. كنت اظنكما تبكيان تمزقاً أعمر ... تمزقاً في لحم الروح ... تمزقاً في اعصاب النفس ... بسيطة .

وتناولت الهاتف وهي تقول : لدي طبيب صديق ، سيجري لكما العملية على حسابي وبسريرة تامة . سألت مذهولة : — ألن يعرف أحد ؟ ...

بسخرية ردت : طبعاً لا . حتى لو جاء الرجل الذي سيشتريك فيما بعد بطبيب مع الكاهن ليتأكد من انك (صاغ سليم) .. لا .. ربما يقدر الطبيب الماهر اذا زود بالمعدات الكافية ان يلحظ آثار العملية ... اجل ! ولكن ريثما ينكشف الأمر للجميع ويشيع خبر هذه العمليات ، لن تواجهها هذه الورطة ، لذا سارعا باتمام صفقة زواج .. اجل ! ... اعتقد أن الرجل العربي سيتزوج من الآن فصاعداً على يدي كاهن وطبيب خبير يفحص له « البضاعة » ! ... ولكن يوم يتقن الطب اجراء هذه العملية ، وهو يوم قريب جداً ، سيكون على الرجل العربي أن يعيد النظر في مقاييسه الاخلاقية كلها التي يقيم بها المرأة « الشريفة » وغير « الشريفة » ...

وبعد حديث هاتفني سريع ، كتبت لنا على ورقة عنوان الطبيب ورقمه الهاتفي . قالت لنا :

— قولاً له « متى نستطيع اصلاح الجوارب المثقوبة » . وسيفهم » كلمة
السر » . هذه التكاليف سأدفعها انا ، مقابل شيء واحد : ان تخبراني بعد
العملية ، هل انتهت المشكلة حقاً بالنسبة إليكما ؟ ...
— لماذا ؟

— لأنني اريد ان أعرف لمن اكتب ، وعلى من اتلو مزاميري ! .. اريد
ان اعرف هل انت حيوان داجن يستحق فعلاً ان يعامل بالطريقة التي يعامله
المجتمع بها ؟ ..
— لماذا ؟

— لأنه اذا كان وجودكن كله ومشاعركن كلها هي مشاعر اليهودي
البيخيل الذي يملك بضاعة واحدة تتوقف حياته على حسن الاتجار بها ، واذا
كنتن راضيات بذلك ، فسوف امزق هذه الصفحات التي كتبتها قبل ان
ادفع بها الى المطبعة . من الواضح انكن فهمتن كل ما قلته في كتي خطأ ...
وظننت انني احرصكن على المقامرة « برأسمالكن » ... انني احرصكن على
ان تلاحظوا انسانيتمكم (عذراً لكني اكره نون النسوة) ..

وخرجنا من عندها . وبرت بوعدها . وبر الطبيب بوعده . ولكن شيئاً
لم يعد كما كان ...

علياء بدت مريضة بعد العملية . ظننت ان ذلك بتأثير « البنج » ، والجل
والمرضة التي كانت تنظر الينا باحتقار ، والطبيب الذي اختبأت خلف
صمته قهقهة ساخرة ... ولكن الأمر تزايد يوماً بعد يوم ...

كانت تبدو كمن اضحى ذليلاً .. قالت لي ذات مرة فجأة : « لم اعد
احتمل هذا العار . وقد بدأ العار يوم رضيت إجراء العملية ، لا قبل ذلك
كما نوهمنا ! » ثم تغيبت عن الصف ذات يوم ، وشاهدت من النافذة
الستائر البنفسجية تخفق في شقة وسيم بعد ان تسدل ...

ولمع في خاطري شيء رهيب ...
ولبلاً جاءت مغسولة بالمطر والدمع ... قالت : لقد انتهى الكابوس

وتخلصت من آثار العملية . عدت الى وسيم ! ...
وشعرت انني احسدها ، وانني لا اجروُ على ان افعل الشيء ذاته ...
كنت مريضة الروح مثلها ، مجلودة بالاحتقار الداخلي المقهور ... ولم اكن
اعرف كم يمكنني ان اقاوم خوفي من السكاكين والخناجر ...
كنت كل صباح اسارع الى الصحف لأقرأ صفحة الجرائم ، واختار
جرائم الشرف بالذات واستغرق في قراءة تفاصيل كيف ذبح أخ اخته من
الوريد الى الوريد ، وأنامل صور الذبيحة فأرى صورة وجهي في كل صورة
بلسد مذبوح ، او كيف طعنها ابن عمها بالسكاكين ثم رشف رشفة من دمها
ثم ذهب الى الشرطة مزهواً ، او كيف شاركت الأم في قطع رأس فتاة وجزءه
عن جسدها وكيف حملوا رأسها في الكيس الى القرية ليعرضوه على كبارها
شهادة لهم في حسن السلوك الاجتماعي ... وكنت تخيل انني انا التي تقتل
وتذبح ويحز رأسها ويمزق جسدها ، واحس بأن الثقب النازفة تنفتح في
جسمي كله ... وأمضي يومي نازفة ممزقة وخوفي على علياء يتزايد ...
وخيل اليّ ذات يوم انني لاحظت بطنها يتكور ، وقلت لها ضاحكة :
انت بحاجة الى « ريجيم » ...

وليلتها سمعت صرختها من الشرفة : يا مريم ... لماذا ناديتني تلك الليلة
يا علياء ؟ لماذا اردتني ان اشهد مصرعك المروع ؟ .. اسرتك حولك يندونك
في الصحراء ثم تفور عاصفة من الرمل وتدخل في عيوني ، وارك عبر سحابة
الرمل والدموع تجرعين كأس الدموع ، وأملك سارعت الى النافذة تغلقها
كي لا يرى الناس ، كان من الضروري ان تموت كي لا تعيش « الفضيحة » .
لماذا كانت الريح باردة هكذا ، باردة تخترق اللحم والعظام والاعصاب ،
باردة كتنظرات أهل العريس الخدرة الى العروس ريشما يخرج اليهم العريس
بقطعة من القماش ملطخة بالدم فتدق طبول أهل القرية ويبدأ الرقص البدائي
حول الذبيحة المضمخة بالدم والغربة ؟ ...
لماذا ظللت صامدة جامدة ، وفي رأسي تصاعدت اجرة سود كأنما انفتح

في دماغي شق من شقوق الجحيم ؟ ...

« البسي الفستان يا عروسة ... العريس يريد ان يراك » . تقول أمه ..
أرتدي الثوب الابيض المزين بالدانتيل الذي كلف خطيبي المغترب الثري ما
يفوق راتب ابني الموظف المستور طول حياته مع رواتبه التقاعدية بعد موته
أيضاً ! ... فستان العرس الأبيض ... يدهشني كيف تقف الفتيات امام
واجهات المحلات يتأملنه بشهية ولهفة وتلتمع في عيونهن باللونات العبد
المضيفة . دون ان يدري انهن يتأملن كَفَنَهُنَّ ...

لين ... يجب ان ارى لين . وان احرضها على كتابة مقال تطالب فيه
البنات بالاضراب عن ارتداء ثوب العرس الابيض ما دام في الحقيقة ليس
اكثر من صرة تلف بها البضاعة . هذا في احسن الاحوال ، وهو كفن ابيض
في اكثر الاحوال ... أما بالنسبة إلي فهذا الثوب الابيض ليس كفني ، إنه
ثوب الجلاد الذي يرتديه حين يُنفذُ حكم الاعدام بشخص ما ... وانسا
سأنفذ احكاماً كثيرة على طريقي ... اذا كانت عليك قد استساغت دور
الضحية فأنا افضل دور الجلاد ... واذا كانت قد هربت قرقاً ، فما انا
اغطس بكليتي في المستنقع واقل اللعبة ضمن شروطها القذرة ، وشروطهم ،
وانتصر ايضاً ... منذ احتلتي تلك الغيمة السوداء تاركة في فمي طعم الرماد
صرت افهم لغة عالمهم ، واعرف كيف مخاطبهم بها .. أجل .. سأكون
سيدة مجتمع من الطراز الاول ... ستحدث الصحف عن ثوب زفافي
واناقتي ، وستقصدي المحررات فأحاضر عن السعادة الزوجية وأملأ أعمدة
الصحف عن فضائل الوفاء الزوجي .. وقد امارس رسم لطف بالدعان واصير
رسامة تجريدية مشهورة .

آه ... أهلاً عريسي ... (البضاعة جاهزة) ... أمي توشوش في اذني :
اسمعي يا بنت . أطلبي منه الليلة ان يكتب لك « بناية » . الليلة قبل الغد .
والغد قبل بعد غد . « اسحبي » منه كل ما تستطيعين قبل ان يمل . فالرجال
يملون بسرعة . والاغنياء يملون قبل الفقراء . والمرأة جانحها مكسور ...
والفرصة تأتي في العمر مرة ...

أزيجها عني . اخرجها من الغرفة . خطيبي واقف على العتبة يتأملني . منذ احتلتي الغيمة السوداء وانا افهم هذا كله ، بل واكثر منه بكثير . مسكينة امي ، كم هي ساذجة ، ومبتدئة : انا جامعية ، وبفكري الاكثر نضجاً استطع ان اكون اكثر شراً ما دام لا أحد يسمح لي بأن اكون شيئاً آخر ...

ثم لأنني جميلة ... وشابة ... تعال يا سعادة المغرب شهال بك ... اجل انظر الي هكذا ... أجل .. تأمل السذاجة في وجه خطيبتك مريم العذراء .. لا ، ارجوك الا تقبلني ، في خدتي فقط ، أجل ، هكذا . لاحظ كيف أتورد خجلاً كالعذراءى . يلذ لك ذلك . اعرف . يثير شهيتك الى الاغتصاب . منذ انتحار علياء - لن اقول مقتلها لأن البنت المهذبة لا تسمي الاشياء باسمائها - عرفت ستائر كثيرة في شقق كثيرة ... ستائر حمراء زرقاء خضراء صفراء ... ورجالا كثيرين كانوا رجلاً واحداً هو تاره اخضر أو احمر او ازرق او اصفر .. كانت عذريتي تثيرهم اكثر مما اثار عطائي وسيم ذات يوم ... كانت تذكرهم بشهوة امتلاك سلعة مخنومة ، فض رسالة مغلفة ... أجل ! ... لقد تعمدت ان اجعل بطاقات الدعوة الى عرسي مخنومة بالشمع الاحمر . (صرعة) تحدثت عنها بيروت باعجاب وبدأت العائلات الثرية تنقلها عني ... نعم . بطاقة الدعوة مخنومة بالشمع الاحمر ، والختم لغة سرية مبهمة عتيقة ... كنت ادعوهم لحضور عرسي ، انا عذراء التكنولوجيا ، وهم قبيلة البدائيين الذين ما يزالون يقفون امام الابواب يتسولون خرقة ملطخة بالدم يخرج بها العريس عند الفجر وتطمئنهم الى ان الدنيا بخير ... آه كم سخرت ... كم ضحكت وانا اكتب عناوين بطاقات الدعوة بنفسي .. بطاقة بطاقة ... آه كم سأسخر ..

شهال بك ، عيب . لا تمد يدك الى صدري . اعرف انني قد ابرزته من الفستان ، ولكن ذلك جزء من طريقة عرض البضاعة على طريقة دكاكين شارع الحمراء ... ولمس البضاعة ممنوع في البلدان الراقية .. وانت طبعاً

تعرف ذلك ما دمت تصطاف في لندن وتشتي في مونت كارلو ... نعم .
لمس البضاعة ممنوع ، والصفقة لم تتم بعد ولكل شيء أصول ... آه ... انك
تلث ، ستلث كثيراً ، فوفر انقاسك ، اخشى ان تموت الآن قبل ان تتم
الصفقة ... ارجوك ، لا تمت الآن ، انتظر ريثما نوقع الأوراق كي اقبض
ولو جزءاً من اجري عن اداء دوري في المسرحية ... اجل ! انني أتدلع
عليك يا شهال بك .. اعرف انك تحب ذلك ... اتدلع واتظاهر بالخوف
منك ، ما رأيك بنظرة الشوق المشبهوب بالخوف التي الصقتها على عيني بين
الرموش المستعارة والكحل ؟ ... عظيمة اليس كذلك ؟ .. الدليل انك
اخرجت مندليك وبدأت تمسح عرقك ... لا ... هدوءاً يا ابن الحمسين ...
اشحذ سكينك بصبر وأناة ... يبدو انك تفقد صبرك باسرع مما توقعت .
كنت اعرف كم انا جميلة لكنني لم اكن ادري اهمية نظرة البراءة والسذاجة
حينما تكسو وجهاً جميلاً وكم تجرد الرجل العربي من مقاومته ...

تسألني : ماذا اريد هدية للعرس ؟ ..

آه .. انخاتم الماسي كان مدهشاً ولكن لي رغبة اخجل من الافصاح عنها ..
لا . لا تلح . انني اخجل . يبدو انك تصدق انني سأموت خجلاً ... حسناً !
لألفظ رغبتني مع (انقاسي الاخيرة !) ... هنالك بناء تجاه الجامعة اسمه
« بناء البستان » فيه شقق مفروشة للايجار ، اريد ان تشتريه لي ... البناء كله .
— ولو (تكرم عينك) . هديه بسيطة . بناية فقط ؟ كل هذا الجمال وبناية
فقط ...

تدخل امي التي كانت تسترق السمع طبعاً و « تزلغط » بسألني شهال
بك ، ولكن لماذا هذه البناية بالذات ؟ ... اقول : لانني كنت دوماً جالسة
في الصف ، « زهقانة » من الدروس ، فالبنت يا شهال بك خلقت للبيت لا
للجامعة مع الرجال ...

يقول : برافو .. عظيم .. تابعي ..

اتابع : وكنت اقول لصديقتي المرحومة علياء .. يا علياء ... يا لبنتي

بدل هذه الحارة الواقعة على الشرفة تدلل أولادها وتطبخ لزوجها .. لقد كانت المشاهد (العائلية) في تلك البناية هي اول ما فتح عيني على عظمة وضرورة السعادة الزوجية .. ولولا ذلك لما قبلت الزواج ولما تزوجنا ولكنك تابعت دراستي الجامعية ... شغال بك يهتف : البناية لك . يخاطب أمي وجارتنا ام علياء : تربية عظيمة . البنت «جوهرة» ... سأهبط لاستقبال المدعوين . اسرعي يا حبيبتي ...

انا جوهرة . اجل . انا جوهرة اللعنة السوداء . انا العين المقتلعة من وجه إله مليء بالقسوة تفوح منه رائحة الدم والسخرية .
اقول لأمي : اخرجي انت وجارتنا اريد ان ابقى وحدي قليلاً .

أسمع صوتي ، قاسياً ، حيادياً ، أمراً .. للمرة الاولى اسمع صوتي الجليد . امي ايضاً ، تدهشها اللهجة ، ولكنها تغادر الغرفة ، فابنتها صارت ثرية وهامة .

اركض الى الهاتف . الفندق فخم لحسن الحظ . ذلك يوفر سماع صوت «السنترال» . ادير رقم هاتف وسيم . يرد صوته الكسول . وسيم . أهلاً .
أنا مريم . هل تذكرني ؟ ...

يقول باحترام لم اسمعه قط في صوته : مريم . طبعاً طبعاً . أهلاً مدام شغال . الف مبروك . الف مبروك ... قبل ان يتابع معزوفته أقول له : انا مسافرة غداً صباحاً الى شهر العسل وسأعود بعد اسبوعين . أحب ان نلتقي بعد ذلك .. كما كنا من زمان ... فالمشاكل العذرية ومخاطر الحمل تكون قد انتهت ، وزوجي كثير الاشغال والترحال ..

يقول : طبعاً ... اتخى ذلك ... اين نلتقي ؟

اقول : في شقتي .

— شقتك ؟ ..

— اعني في شقتك . البناية كلها صارت ملكاً لي . اشتراها لي زوجي

هدية للعرس . بالمناسبة ، سأحضر لك معي من اوروبا ربطات عنق ثمينة ،
وسترتديها لي على التلفزيون ...

بذل ناعم الصوت ، يقول : امرك يا سيدتي ...

— بالمناسبة ، ارجو ان تبحث عن شقة اخرى . أريد ان استعمل هذه
الشقة بالذات لأموري الشخصية .
— امرك يا سيدتي .

امرك يا سيدتي ... كم سأسمع هذه الكلمة بعد الليلة . كم ستخني رؤوس
لتقبل يدي . بيروت كلها ستأتي الى عرسي ... بيروت المال والوجاهات
ستركع اعواماً طويلة عند اقدامي ريثما ينوي جمالي ، وحتى بعد ان ينوي
جمالي ستهزل راحة ما دام مالي لم يذو ... اني كنت دوماً ارى في الصحف
صوراً لنساء كأنهن المومياءات الخارجات من قبورهن ، يرتدين المجوهرات
ويلفن حوّلن الفراء ، ويظهرن في المجتمعات ويمحوم حوّلن شبان صغار
مساكين .. اجل .. ستهزل بيروت راحة عند اقدامي ما دمت أراعي قواعد
اللعبة القائمة ، وافهم اشارات المرور الحمر والخضر ، التي تعارفوا عليها ،
واعرف كيف اشترى الضوء الاخضر حين أريد ...
ولكن لين ...

سأهتف لها ... لا ادري لماذا احس بحاجة لانخبارها بخاتمة القصة . ثم انها
هي طلبت مني ذلك . سأحدثها عن انتصاري .. وعن هرب علياء ... اهتف
اليها . اقول لها اشياء كثيرة .. امي تفرع الباب ... وانا اتحدث ... وامي
تناديني من الخارج .. وانا اروي كل شيء للين . أمي تدفع الباب وتدخل
غاضبة ، ولين ترد علي بعبارة واحدة : تافهتان . انت وعلياء تافهتان ...
وانت تافهة حقيرة .

ها انا اهبط الدرج ملكة اسطورية الى جمع المدعويين ...
ها انا اضيء .. ها عدسات المصورين تلتصع ... كلمات لين تعذّبي ...

غداً ، بعد شهر العسل ، اشترى دار النشر التي تنشر كتبها والمجلة التي
تكتب فيها .. وأطردھا

اجل ... صفقوا لي .. ألا ترون كم انا ساحرة ومشعة .. انا غبراء
بيروت ١٩٧٣

(آه ... يجب ألا انسى الاتصال بالخالق الوسيم قبل سفري لاضرب له
موعداً ولاعطيه عنوان شقّي البنفسجية) ...

الساعة ٢ يوم ٢٩ - ١ - ٧٣

فهرس

٥	الدانوب الرمادي
٣٩	ارملة الفرع
٥٩	حريق ذلك الصيف
٩١	جرمة شرف
١١٣	الساعتان والغراب
١٤٩	عذراء بيروت

للوفاء

أهدي هذا الكتاب الى الرجل الذي أحب

غاده



□ انطلاقات الخيال الخلاق
لدى غادة السمان تجعل منها
واحدة من الأصوات الأكثر
تجديداً وإصالة في الأدب العربي.
البروفيسور أيروس بالديسيرا

□ ملحمة من عبارات متفجرة، غير أنها على الرغم من ذلك سلسلة لا إبهام
فيها ولا غموض، ترجم التخلف وتفضح الزيف وتهدم القواعد غير المستندة
على أي أساس متماسك مما يشتهيه كل مفكر حر، ويهواه كل أديب حي، وأرجو
أن يصيب رجمك كل جزء من البلاد من المحيط إلى الخليج وأنا موقن بحسن
النتيجة.

دو النون أيوب

□ «الدائوب الرمادي» - أولى قصص «رحيل المرائء القديمة» هي واحدة من
أجمل القصص «الحزيرانية» وأكثرها عمقاً وتعبيراً عن المأساة والتغلب عليها
وفتح نوافذ للأمل والخلاص.

عابدة مطرجي

□ «رحيل المرائء القديمة» ليس إضافة إلى فن غادة السمان فحسب، ولا
إضافة إلى القصة العربية القصيرة فقط... وإنما هو إضافة كيفية إلى الوعي
العربي المعاصر.

غالي شكري

□ قصة «الساعتان والغراب» مثال ساطع على توجه الأدب العربي إلى
مواضيع جديدة تولدها التحولات الاجتماعية. وقصة الحب والواجب هنا
تختلف عن القصة العربية التقليدية. ونجحت الكاتبة في إيجاد شخصية
جذابة للثوري العربي الشاب.

البروفيسور فلاديمير شاغال

□ الكلمة ملكة، تولد من فكر غادة السمان متوجة حاكمة.

مي منسي

□ غادة السمان هي اليوم الكاتبة العربية بامتياز.

يوسف الخال

